الفصل الحادي عشر

دراسات المستشرقين عن المدينة العربية الإسلامية

تعدّ دراسة تواريخ المدن العربية الإسلامية من الدراسات الهامة التي أخذت تستهوي اهتمامات الباحثين. فالمدينة العربية هي الوحدة الأساس والأنموذج الأكمل للحضارة العربية الإسلامية الفاعلة، وأن تحليل تركيب بنيتها الداخلية وإظهار سماتها وخصائصها، وإبراز الدور الذي قدّمته يعد مشاركة في إلقاء الأضواء على فعالية الدور الذي أدّته الحضارة العربية الإسلامية بصورة عامة. والمدن كما هو معروف وليدة الحضارة أو كما عبّر عنه بودلنك Boudling المدينة هي الحضارة[١].

وتكمّن أهمية دراسة تواريخ المدن بالإضافة إلى ذلك، في فهم وضع المدينة الحاضرة وتحسّس وظيفتها فيقول لويس ممفورد Mumford في كتابه (المدينة في التاريخ) فخلال مرحلة التطور التمدني المعاصر ومن أجل تفهم دور المدينة الحاضر لابد من فهم ودراسة التكوين التاريخي للتمدن ووظائف المدينة الأصلية. بدون ذلك فلا نملك المحفّز في أتّخإذ خطوات مستقبلية جريئة)[٢].

فدراسات التمدن العربي الإسلامي Urbanization وأعني بها الدراسات المقارنة هي دراسات حديثة؛ صحيح أن هناك بعض المؤلفات عن هذه المدينة العربية الإسلامية أو تلك باللغة العربية وهي دراسات دون شك جيدة غير أنه ليس هناك من كتابات توضح فيما إذا كانت هذه المدينة الفردية أو تلك تمثل أي ظاهرة تاريخية أو أي وحدة مدينية لها فلسفة خاصة في تكوينها تجمعها وفلسفة تأسيس المدن الأوربية أو غيرها القديمة منها والوسيطة؟ وفيما إذا كانت المدينة العربية الإسلامية تحمل أي مضمون متميّز أو صفة واضحة؟ وفيما إذا كانت هذه المدينة أو تلك مدينة دينية في نشأتها أم أنها وليدة التطورات الحضارية أم أنها مدينة إقتصادية أم أنها كانت مدينة لا تجمعها أية وحدة مدينية على الأطلاق؟

---

(1) Kenneth E.Bouding: "The death of the City: A frightened Look at Past Civilization" in the Historian and the City, p. 133.

(2) Louis Mumford: The City in History (New York, 1961) p. 3 وترجم إلى العربية.

لقد شهدت المدينة الأوربية منذ الثورة الصناعية وما زالت تشهد تطورات إقتصادية وتخطيطية وعمرانية وتقنية كبيرة، الأمر الذي دفع بالبروفسور توينبي إلى أن يسمي هذا التطور الحديث في كتابه (المدن في حركة) بالتفجر التمدني Uraban Explosion تشبّها بالتفجر السكاني[١] Poulation Explosion. وارتباطاً بهذا التطور فقد برزت على صعيد الدراسات المتعلقة بالمدن والتمدن عدد من الإتجاهات والتوجّهات منها على سبيل المثال: -

١- ظهور مجموعة من الكتب والدراسات التي تتناول وضع المدينة الأوربية في العصور الوسطى وفي مدة ما قبل الثورة الصناعية وهي تركّز على المدينة الأوربية خاصة.

٢- ظهور عدد من الكتب والدراسات حول طبيعة التمدن في المدينة الأوربية الحديثة والأمريكية. ومجموعة أخرى من الكتب والدراسات المتعلقة بتخطيط المدينة الأوربية وتركيبها الداخلي والمشاكل التي تعاني منها وسبل التغلب عليها.

٣- إهتمام الجامعات الأوربية ولاسيما الأمريكية بحقل Urabanisation وهو حقل جامع يجمع بين الدراسات الإجتماعية والإقتصادية والجغرافية والتاريخية. فهناك أقسام خاصة بهذا النوع من الدراسات يضم أساتذة متخصصين يعرفون بأساتذة التمدن الحضري.Urbanists

ولكن على الرغم من هذه الخلفية القوية علمياً لدراسات المدن والتمدن وكثرتها، فإن موضوع الدراسات المقارنة لم يزل حديثاً إذ لم يبلغ عمره سوى سنوات قليلة، وإن تجربة هذا النوع من الدراسات ما زال يخضع لمناقشات ومجابهات.

فالباحث الإجتماعي Gideon Sjoberg في بحثه (بحث ونظرية في علم الإجتماع التمدني)[٢] وروبرت الفورد Robert R.Alford في بحثه (التحولات والتطورات في

---

(1) Arnold Toynbee: Cities on the Move(oxford 1970)preface).

(2) Gideon Sjoberg, "Theory and Research in Urban Sociology " in the Study of Urbanization, ed, by, Philip M.Hauser and Leọ F.Schnore(2nd ed. U.S.A 1966) PP. 157-189.

تفسير وشرح الدراسة المقارنة للتمدن الإداري والسياسي)[1] وروبرت دالاند Robert T.Daland في بحثه (أبعاد الدراسة المقارنة بشأن أنظمة التمدن)[2]. وروزنثال دونالد Rosenthal Donlald, B في دراسته (مشاكل التحليلات المقارنة لأنظمة التمدن السياسي)[3]. جميع هؤلاء يشيرون بتفصيل أو اقتضاب إلى المشاكل والصعوبات التي تواجهها الدراسات المقارنة خلال مدة الستينيات. ويبدو أن مثل هذه المجابهات قد استمرت وتواصلت حتى مدة متأخرة. ففي المؤتمر الذي نهدت بعقده جامعة مشيغن في إذار ١٩٧٣ بعنوان The City in History (المدينة في التاريخ) قدّم فيه جنز Herbert Gans ورقة عن هذه الدراسات ووقف موقفاً (معارضاً)[4] إزاءها. والواقع أن تخوّف Gans من صعوبة نجاح دراسة التمدن المقارنة فيه كثير من الوجاهة فهي دراسة صعبة وربما تؤدي إلى نتائج تتّسم بصفة المجازفة. إنها صعبة؛ لأنها تحتاج إلى إلمام واسع بنظرية التمدن أولاً والمدن التي تعقد بينها المقارنة ثانياً. وتصبح أكثر تعقيداً إذا ما أخضع للمقارنة قطّاع واسع من المدن أو المجتمعات المتمدنة في نواحيها الشكلية الوصفية والطوبوغرافية والبنيوية التركيبية ضمن مناطق جغرافية مختلفة وعلى وفق لعامل واحد دون غيره من العوامل الأخرى وهنا يكمن سرّ المجازفة والمخاطرة. ومع كل ذلك أخذت الدراسات المقارنة تنمو وبشكل سريع، وأصبح الاهتمام بها من الناحية العلمية يتزايد يوماً بعد آخر، لكن لماذا حدث ذلك؟ فسبب نجاح الدراسات التمدنية المقارنة يرجع أولاً وبصورة أساس إلى نقص الدراسات الغربية للتمدن فهي دراسات قد انقسمت على مدرستين: - الأولى ويمكن تسميتها بالدراسات الوصفية (Descriptive)، وهي فضلاً عن تركيزها على المدينة الغزبية فقط فقد اهتمت بالمدينة من حيث ظروفها الخارجية (External Conditions) وتنظيماتها الإجتماعية. فهي لم

---

(1) Robert R.Alford: "Explanatory varia bles in the comparative study of Urban Politics and Administration" in Compa rative Urban Research. The Administ ration and Politics of Cities, ed. By Ro bert T.Daland, U.S.A 1969, P. 321-323.

(2) Robert T.Daland: "Camparative Per spectives of Urban Systems" in com parative Urban Research" The Admini staration and Politice of Cities, pp. 20-29.

(3) Rosenthal. Donald, B: "Problems in Comparative Analysis of Urban Poli tical System" Unpublished paper based on a presentation at University of North Carolina (Jan 1967).

(4) Cited by Janet Abn Lughod: The legit macy of Comparisons in Comparative Urban Studies: A Historical position and an application to North Afrian cities" paper presented to the compa rative Urban studies and planning Pro gram (University of California Feb. 1970) p. 10.

تهتم إلا اهتماما قليلاً بتاريخ التمدن، كما أنها لم تعر أي اهتمام بتشخيص المشاكل التي تعاني منها المدينة الحديثة وطرق معالجتها. فالتمدن لدى هذه المدرسة يعادل التصنيع لا غير[١]. أما المدرسة الأخرى فهي التي يطلق عليها بالدراسات البنيوية (Structural) وهي الدراسات التي تركّز على العوامل المحيطية -- البيئية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية. فالإضطرابات التي تحدث في هذه المدينة مثلاً أو تلك لا تؤخذ بالمنظار الفردي الموقعي فحسب بل بمدى علاقتها بالعوامل الإجتماعية والإقتصادية للمدينة التي حدثت فيها هذه الأحداث والتوترات. ودراسة سبب حدوثها في هذه المدينة مثلاً وعدم حدوثها في مدينة أخرى[٢]. ونتيجة لسيادة الطابع الوصفي على الدراسات الإجتماعية للتمدن فإن لجنة التمدن للبحوث الإجتماعية في المؤتمر الذي عقد في ألينوس Illinois في شيكاغو.

Committee on Urbanization of the Social Science Research Council.

ف١٢ ماس ١٩٥٨ بعنوان (دراسة التمدن) .The Study of Urbanization

إتفقت على زيادة الاهتمام بالدراسات المقارنة بوصفها مهمة من أجل التوصل إلى فهم كامل لنمط التمدن Process of Urbanization ونتائجه[٣]. ومما لاشك فيه فإن الدراسة المقارنة للتمدن تقدّم مساهمة فعّالة في توسيع فهمنا وإدراكنا لطبيعة التطور الحضاري للمدينة من النواحي الإجتماعية والإقتصادية والثقافية وفي مدن مختلفة وبلدان مختلفة أيضا، ومن ثم فإنها تتوّصل إلى نتائج هامة جداً في حقل دراسة التمدن.

والدراسة المقارنة للمدن، شأنها شأن غيرها من الدراسات الإنسانية، قد خضعت لتفسيرات ونظريات كلّ منها مال إلى عامل واحد من العوامل التطورية وعدته العامل الأساس دون غيره من العوامل، علماً بأن هناك عدد من الدراسات قد اتجهت في تفسيرها لطبيعة التمدن في المجتمعات صوب عوامل عدة مجتمعة.

---

(1) Philip M.Hauser and Leo F.Schnore: The Study of Urbanization, p. 209-10.

(2) Robert, R. Alford: "Explanatory Vari a bles" p. 276, Gideon, Sjobdrg: Theory and Research" p. 159.

(3) Philip Hauser and Loe Schnore op. cit. p. 210.

فالبروفسور Robert MccAdams المشهور بدراساته المتعددة عن المجتمعات التمدنية القديمة ولاسيما العراقية القديمة أصدر كتاباً عام ١٩٦٦ في شيكاغو عنوانه (تطور المجتمع المتمدن) وهو دراسة مقارنة بين مجتمعي وادي الرافدين ووادي أمريكا Mesoamerica أي المكسيك قبل الغزو الأسباني Prehisponic[(١)] وقد تميز بطرافته، إذ أخضع للمقارنة أنموذجين حضاريين للتمدن القديم (قبل الميلاد) وللحديث قبل الغزو الأسباني بحثاً وراء عناصر التشابه بينهما فهو يشير إلى هدفه بما يأتي:

"This volume is concerned with the presentation and analysis of regularities in our two best documented examples of early independent urban societiesÂ.

وهي إنما تهدف إلى تهيئة مقارنة منظّمة أو مرتّبة حسبما تسمح به المعلومات، لأشكال المؤسسات واتجاهاتها للتنمية الموجودة فيهما. مع التشديد على المتشابهات الأساس في البنية Structure أكثر من السمات الشكلية الأخرى التي اشتهرت بها كل من تلك المجتمعات[(٢)]. وبذلك فإن آدمز يشدّد في مناقشته ومقارنته للمجتمعين على التحولات الـ Societai أكثر من التحولات الثقافية Cultural مبتدأ بالتشابهات الإقتصادية القائمة على الزراعة والنتائج المترتبة على هذا التطور الإقتصادي إلى حجم السكان والأحوال الإجتماعية (دراسة العائلة وعاداتها، الطبقات الإجتماعية وعادات كل منها) والسياسية (العلاقة بين الدين والسياسة الداخلية والخارجية)[(٣)]. والعامل الحاسم الذي وجّه إليه آدمز دراسته هو العامل الـ Geopolitics الجغرافية ـ السياسية. بينما ركّز لويس ممفورد في كتابه المشار إليه آنفاً على عامل Environment (البيئة أو الظروف والمحيط) ولاسيما في الفصول الأولى من كتابه، ففي رأيه.

"The city and its inhabitants to function effectively must adjust to or even blend into the world of nature"

وإن أهم مشكلة تواجه المجتمع المتمدن اليوم هي تلك الناتجة عن عدم التوازن

---

(1) Robert Mc C. Adams: The Evolution of Urban society (Early Mesopotamia and Prehispanic Mexico) Chicago 1966.

(2) Ibid, P.1.

(3) Ibid, P.12.

بين الطبيعة (الظروف المحيطة) وبين الحضارة الإنسانية وبضمنها المدينة[١]. إما Fustal de Coulanges فقد ركّز في كتابه (المدينة القديمة) على أهمية العامل الديني بوصفه الرابط الأساسي الذي يربط القبائل في أي مدينة من المدن. وأن المجتمع يتطور بسرعة من خلال الدين، فالـ Urbs الذي يعني مكاناً للتجمع السكني، هو مكان مقدس بنفسه[٢]. لهذا فالمدينة في رأيه ما هي إلا فعلاً دينياً.

"As a sanctuary for this common worship, and thus the foundation of a city was always a religions act"[٣].

ومن المناسب ذكره هنا أيضاً أن البروفسور توينبي في دراسته عن المدن في حركة يشير إلى أهمية العامل الديني لكنه لا يعده العامل الأساس والوحيد فهو يقول:

"Evary city - or it might be more accurate to say, every city before the present age of mechanization - has been, among other things a holy city in some degree. Relgion is an intrinsic and distinctive ele- ment in human nature, as I see it, and it is unquestionable that, until not more than about two hundred years ago, every city has had a religious aspect among others"[٤].

غير أن البروفسور توينبي في مجال آخر يعود فيتحدث بصيغة أكثر مباشرة إذ يذكر بأنه ليست هناك مدينة في أي وقت ومكان كانت مدينة تجارية أو صناعية أو سياسية أو عسكرية أو دينية فقط[٥]. وهناك عدد من المتخصصين الذين حاولوا تطبيق نظرية العامل الإقتصادي في دراساتهم المقارنة كما فعل Jone Jacob في دراسته (إقتصاد المدن) الذي يبدو فيه كأنه متأثر ـ ولاسيما في حديثه عن مدن العصور الأوربية الوسطى ـ بنظرية هنري بيرين Pirenne في كتابه (مدن العصور الوسطى منشأها

---

(1) Mumford, op, cit., Gideon: " Theory and Research" p. 169.

(2) Fustal de Coulanges: The Ancient City: A Study on the Religion laws and Ins ututions of Greece and Rome (New York) p.127, 131, 134.

(3) Ibid, p 134.

(4) Toynbee, op, cit, p. 153.

(5) Ibid, p. 153.

وانتعاش التجارة)[١]. في الوقت الذي تتبع فيه V.Gordan Childe أثر عامل التطور التكنولوجي في كتابه (الأنسان يصنع نفسه)[٢]؛ فهو يشير إلى ذلك بقوله: إن القوى المحركة الرئيسة للتحول التمدني إنما تقع عند ظهور التكنولوجيا الحديثة، ونماذج المعيشة. فالتطور المتزايد للتكنولوجيا وازدياد الحصول على فائض الغذاء لتزايد رأس المال هما الدافعان الرئيسان للثورة التمدنية Urban Revolution[٣].

ومع ذلك فالدراسات القليلة السابقة إن هي إلا بدايات في تأسيس الدراسات المقارنة عن المدن الأوربية بشكل خاص، عدا دراسة Adams التي تناولت أنموذجاً للتمدن في الشرق القديم. والظاهر أن نظرية التطور التي غلبت على الدراسات السابقة ما زالت تحتّل مكانة هامة في حقل الدراسات المقارنة، لأنها في الحقيقة النظرية التي تستند إلى التاريخ وتجعله القاعدة التي تنطلق منه المقارنات الحضارية. علماً بأن الإتجاه نحو عامل واحد في هذه الدراسات التطورية يتضمن كثيراً من النواقص ونقاط الضعف وذلك لأهمالها أثر العوامل الأخرى المتشابكة. وتتجلى قمة الدراسات المقارنة المستندة على عامل واحد في الكتاب القيم الذي كتبه Gideon Sjoberg الموسوم بـ (المدينة قبل حركة التصنيع)[٤]. والواقع أنها دراسة مضنية نجح فيها المؤلف في تقصي الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية والثقافية والطوبوغرافية لقطّاع من المدن في جهات واسعة من العالم في الصين والهند واليابان وأوربا وفي بعض الحالات أفريقيا. وهو مع الأسف لا يشير إلى المدينة العربية إلا في عدد قليل من المناسبات، على الرغم من أن آرائه المتعلقة بأثر العامل السياسي في نشوء وتطور ومن ثم تدهور المدن لها ما يماثلها عند المؤرخ ابن خلدون. حقاً أنه يشير إلى ابن خلدون في هذا المجال الفكري لكنه يقلل من أثره ويشيد بأثر مؤرخ المدينة الإيطالي Giovani Botero الذي جاء بعد ابن خلدون بمدة وكتب كتاباً عن المدن مبيناً فيه أثر

---

(1) John Jacob: the Economy of Cities (New York 1969) Henry Pirenne: Medieval Cities, their origins and the revival of Trade, Trans, by Frank D.Hasley (Princeton 1925).

(2) V. Gordon Childe: Man makes himself (6thed, U.S.A 1958).

(3) Ibid, 120, 121, 122, 138, Adams: The Evolution, p. 11-12.

(4) Gideon, Sjoberg: The Pre-industrial City, Past and Present, (Texas, 1960).

العامل السياسي[١]. يقول جيدون سجوبيرج Gideon أن أي مدينة حتى تلك التي تحمل صفة المدن التجارية لا تنتعش ولا تزدهر دون تأييد مباشر وغير مباشر من دولة لها نظام سياسي قوي[٢]. فكيدون على الرغم من تركيزه على العامل السياسي في نشوء المدن قبل الثورة الصناعية، لكنه يركّز في دراسته التطورية هذه على عامل التكنولوجيا والصناعة في نشوء هذه المدن ويخرج بنتيجة مفادها أن التصنيع فيها كان على مستوى بسيط؛ وأن الحرفي كان هو الأساس في تصنيع المادة خلال مراحل تصنيعها المختلفة وكذلك في عملية تسويقها[٣]. وهدف كيدون من هذه الدراسة تحليل بنية المجتمعات المتمدنة قبل التصنيع الحاضرة ووضعها موضع المقارنة مع المدينة الصناعية الحاضرة ومجتمعها. كذلك وصف المدن قبل التصنيع تاريخياً قبل أن تتحول بفعل عملية التصنيع الحاضرة، وفيما إذا تتوافر أوجه شبه بينها.

وبخلاف الدراسات السابقة فإن الدكتورة جانيت أبو لغد توصلت إلى نظرية جديدة للمقارنة لا تستند الى عامل واحد، فقد أوضحت منهجها هذا في الورقة التي تقدّمت بها إلى مؤتمر الدراسات التمدنية المقارنة وبرامج تخطيط المدن الذي انعقد في مدرسة الآثار والتخطيط الحضري في جامعة كالفورنيا في شباط ١٩٧٤. وأبو لغد ـ كما هو الحال بالنسبة إلى كيدون ـ متخصصة في علم الإجتماع المدني أو الحضري. والنظرية التي أشارت إليها في ورقتها حول (شرعية المقارنات في الدراسات التمدنية المقارنة)[٤] تسمى بـ Process of Generalization وطبقتها على ثلاثة نماذج من المدن العربية الحديثة في شمال أفريقيا هي القاهرة، مدينة تونس ثم رباط ـ سالي في

(1) Ibid, p. 3, Giovani Botero: A Treatise concerning the causes of the Magnificency and Greatness of Cities. Trans from Italian by Robert Peterson 1606 (London 1950) pp. 227-28.

(2) Gideon, Sjoberg, op, cit, p. 76, (Muhsin Mahdi: Ibn Khaldun's Philosophy of History (London 1957) p. 209,210-211).

(3) Pre - Industrial, p. 6,7,8 Gideon, Sjoberg; "Cities in developing and industrial Societies: A cross- cultural analysis" in The study of Urbanization, p. 216-219.

(4) Janet Abu Lughod: "The legitimacy of comparisons in comparative urban studies: A theoretical position and application to North African Cities". Paper presented to the comparative Urban Studies and Planning Program (School of Architecture and Urban Planning University of California, Los Angeles, Feb 1974.

مراكش. والملاحظ أن أكثر دراساتها ابتداء باطروحتها تتركّز على القاهرة الحديثة[1]. وأساس نظريتها يعتمد على أسلوبين للمقارنة، الأول منهما الذي تطلق عليه The Paramenters أي التشابهات إذ ذكرت فيه أوجه الشبه بين هذه المدن الثلاث. وهي مع أنها تركّز على التطورات الحديثة في تلك المدن ترجع إلى أصولها التاريخية قبل المدة الإسلامية وخلالها. أما الأسلوب الثاني فتطلق عليه The Variations أي الاختلافات ومنها السكانية، والعمرانية، والإقتصادية، والجغرافية، والدكتورة أبو لغد هاهنا أيضاً لم تهمل الخلفية التاريخية للمدن من أجل توضيح جذور تلك الاختلافات. ودراسة أبو لغد مع أنها جديّة لكنها ليست جديدة تماما. واقصد في أسلوبها أو نظريتها في المقارنة، إذ إن روبرت الفورد الإجتماعي قد استعملها أيضا في دراسته المقارنة عن التمدن السياسي والإداري سنة ١٩٦٦ وأطلق على الأسلوب الأول Situational والثاني الـ Demography، لكن جانيت أبو لغد خصّصت النظرية لدراسة كاملة شاملة؛ فضلا عن أن الدراسة تتضّمن كثيراً من العموميات التي لم تدعم والتي قد تؤدي إلى تضجّر علماء التمدن المقارن الذي يعرفون الكثير عن هذه المدن الثلاث فتقول ما نصّه:

By now I have probably not annoyed specialists on these cities with too many as" yet unsupported and possibly erroneous generalizations but also bored comparative Urbanists who now know more about these three cities then evercared to"[2].

ليس هذا فحسب فإن الدراسة خالية من الهدف؛ صحيح أنها بيّنت التشابهات والاختلافات بين القاهرة وتونس ورباط سالي لكنها تغافلت عن الأسباب والنتائج المترتبة على ذلك قديماً (وحاضراً). وأحسب أن الدكتورة جانيت أبو لغد في دراستها قد اتّبعت النظرية التطورية السابقة نفسها. فالقاهرة مهمة الآن؛ لأنها كانت مهمة منذ مدة تأسيسها عاصمة ومركزاللتطورات الفكرية والسياسية؛ وهي مدينة التحولات الإجتماعية والإقتصادية. المدن الثلاث إذن نتيجة إلى عراقتها وأصالتها التاريخية فقد

(1) The Ecology of Cairo, Egypt: A comparative study using Factor analysis (Ph. D. Dissertation, Department of Sociology, University of Massachusetts 1966. Idem "Victorious city: The growth and structure of Modern Cairo (Princeton). Idem Cairo fact book (Cairo 1963) وغير ذلك.

(2) Abn Loghud: " The legitimacy" p. 35: See also Robert Alford: Explanatory Variables, p. 276-77.

ظلّت محتفظة بعدد من السمات المهمة في الوقت الحاضر وهذه عين نظرية التطور.

فالدراسات التي وقفنا عليها على الرغم من قلّتها تعدّ الأساس والمهمة في حقل الدراسات المقارنة للتمدن. فإلى أي مدن يمكن الإستفادة منها في موضوع المدن العربية الإسلامية في العصر الوسيط؟ وهل بالإمكان عدّ إحدى هذه النظريات الأمثل في تفسير المدينة الإسلامية ومقارنتها بأختها الأوربية وخلال حقب تاريخية واسعة؟ بادئ ذي بدء إن المدن العربية الإسلامية تجمعها قواعد وأسس مشتركة عديدة بعضها تاريخي والآخر ديني وقومي واجتماعي وسياسي وإلى درجة كبيرة إقتصادي.

وقبل التوغل في دراسة وجهة النظر العربية في المدينة العربية الإسلامية وفي خصائصها ومقومات وجودها في الدراسات العربية لا مندوحة من الإشارة وباقتضاب إلى النظريات التي ارتكز عليها الغربيون في تفسير المدينة بصورة عامة، وذلك لأن أكثر التفسيرات أو التوصيفات التي حدّدها المؤرخون والمتخصصون في التمدن من الأجانب للمدينة العربية الإسلامية قد استندت في الأساس الى هذه النظرية أو تلك من النظريات التي تمّ عرضها في السابق. والمسألة الأولى التي تجابهنا ونحن نتحدّث عن المدينة العربية الإسلامية هي ما تعريف المدينة؟ وهل هناك سمات محدّدة لمنطقة ما أو مكان ما يحمل صفة المدينة City؟ وهل هناك سمات أخرى محددة لمكان ما يطلق عليه Town أو قرية Village؟وما المعيار الذي يستخدم أو تمّ استخدامه في المدينة الإسلامية؟. بالنسبة لهذا الموضوع فجميع ذلك سوف تفسره نظريات التمدن.

ولعله من الممكن إعطاء فكرة مجملة عن مدارات تلك النظريات بما يأتي فهل المدينة أصلها ديني أم سياسي عسكري أم تجاري؟ هناك بعض الآراء التي أرجعت - كما ذكرنا بالنسبة إلى Fustal de Coulanges وتوينبي - أصل المدينة إلى أنه ديني، فكل مدينة قبل عصر المكننة الحديثة كانت من بين ما كانت عليه مدينة مقدسة دينية، كما عبّر توينبي[١]. في الوقت الذي حدّد فيه Frederick William Maitland في كتابه (المدينة والـ Borough) تطور المدينة الإنكليزية بقوله إنها ترجع إلى القلعة Castle أو البرج Burg أو Borough؛ وأن أهالي المنطقة يبدو أنهم كانوا يحتفظون ببيوت وجنود وحصون دفاعية داخل هذه القلعة ويستخدمونها في حال الحرب أوالخوف من

---

(1) Toynbee, op.cit, p. 153, See also Ashley: The beginnings of towns life in the Middle Ages" In The QJE (1896 P. 374).

الاعتداء والهجوم على مساكنهم[١]. وعلى هذا الأساس تعدّ آراءه عن أصل المدينة ضمن النظرية العسكرية Military Theory القائلة ومفادها إن المدن قلاع تتخذ للأغراض الإضطرارية والإحترازية حيث الأهالي يسورون المكان من أجل الإحتماء به في أثناء الحروب. ويتطور هذا التفسير فيتمثّل عند Boudling إلى تفسير سياسي أو نظرية سياسية، وأن المدينة أصلها سياسي وأن التجار والحرفيين يجتمعون في هذا الموضع في حماية أو في ظل الحصن يتحصنون به.

Trade and manufacture often begin in the political city, for the first traders and artisans gather under the shadow of the fortification .[٢]

و يقول أيضا إن المدينة السياسية يمكن عدها من أقدم المدن وأولها[٣] في النشأة. ويعدّ كارل ماركس أول من فسّر نشأة المدينة ووظيفتها الأساس على أنها مؤسسة إقتصادية. غير ان هنري بيرين الفرنسي يعدّ من أشد المتحمسين للتفسير الإقتصادي، ولاسيما التجاري منه، في عوامل نشوء المدينة سواء كان في كتابه المدن في العصور الوسطى، أصولها وانتعاش التجارة) أو في بحثه باللغة الفرنسية (المدن هي مجتمعات التجّار)[٤]. فهو لم يعد المراكز التي قد اتخذت للحماية العسكرية أو مراكز للتعبّد الديني مدناً. واستمر هذا المفهوم حتى القرن التاسع الميلادي فإن الـ Civitas[٥] هي في الحقيقة مرادفة لمدينة الكنيسة أو مدينة الأساقفة EYiscopal إذ كان فيها الـ bishop يتمتع بسلطات دينية ودنيوية واسعة، فكانت قلاعاً ومؤسسات أسقفية لا غير وبذلك فإنها لا يمكن وصفها مدناً[٦]. وتأسست حول أسوار هذه القلاع المدن على صيغة خاصة خلال مدة الإنتعاش الإقتصادي فتحولت الى ما يعرف by product وذلك بعامل

---

(1) Maitland F: Township and Borough (Cambridge 1895) p. 18, 24, Max Webber: The City, Trans and Edited, by Don Martindale and Gertrud Neuwirth (New York 1968) pp. 45, also Ashley: The beginning" p. 373.

(2) Kenneth, Bolding.The death of the city.134, 135, 136.

(3) Ibid, p. 134.

(4) H. Pirenne: Medieval Cities (Princeton 1925).Idem " Les Villes Sont L Ouvre des merchands" in Revue His- torique (LVII).

(٥) تعني كلمة Civitas مدينة الأساقفة Episcopal أي مركز الأسقفية. وكان هذا التحديد معروفاً منذ بداية القرن السادس الميلادي.

(6) Pirenne: " Les Villes" p. 76, Weber: Op.Cit p. 49-50.

نشاطات قوافل التجارة التي اعتادت على المكوث خارج الأسوار منتفعين من عوامل حمايتها في أثناء المخاطر. وبفعل تأثير التجارة دخلت المدن الرومانية القديمة مثلا حياة جديدة واتسع حجم سكانها؛ لأن جماعة من التجّار كانوا قد تجمعوا حول القلاع العسكرية ووطّدوا أنفسهم على طول ساحل البحر أوعلى ضفاف النهر أوعند مراكز التقاء الطرق. وكل منها أدّى فعل دور السوق، فالمدينة إذن هي مجتمع التجار(١). وإلى جانب هذه التفسيرات ذات العامل الواحد في أصل ونشأة المدينة، هناك من حاول الجمع بين عوامل متعددة مثل ما قامت به Adna Webber في كتابها (نمو المدن في القرن التاسع عشر للميلاد)(٢). فهذه الباحثة على الرغم من اعترافها بأهمية العامل الإقتصادي في نشوء المدن؛ إلا أنها لم تنكر العوامل الأخرى مثل العامل السياسي والإجتماعي. فتصرّح بإن إصدار قوانين لتشجيع الهجرة أوتركيز الإدارة المركزية، والقوة السياسية في الحفاظ على الأمن في المدن، والعامل الثقافي... الخ. هذه العوامل مجتمعة تساعد على نمو المركز أو المكان وتطوّره إلى مرتبة المدينة(٣).

شهدت دراسة أصل المدينة ونوعها منذ حوالي الربع الأول من القرن العشرين تطوّراً جديداً؛ فمثلاً نجد جامعة شيكاغو قد شجّعت في سنوات ١٩١٥-١٩٢٥، على جمع عدد من المحاضرات المتعلقة بالمدن وأصدرتها في جزء واحد بعنوان "The city" وتولّى هذه العملية كل من

Roderick D. Makenzie, Ernest W. Burgess, Robert E. Park (٤)

ويعدّ هذا الإنجاز البداية لظهور نظرية منظّمة من قبل علماء الإجتماع عن المدن ووظيفتها وأصلها؛ وهذه النظرية هي التي تعرف بنظرية Ecology Theory(*) التي ركّزت

---

(1) Pirenne " Les Villes" p. 102

(2) Adna Weber": The Growth of Cities in the 19tn Century, (New York 1899).

(3) Weber: The city, p. 16-17.

(4) Robert: The City, p. 16-17. New York 1955, p. 7, Weber: Op. Cit. p. 21.

(*) من بين ما يتضمنه معنى كلمة Ecology دراسة السكان Demography والأقتصاد والسياسة وأحياناً التركيب أو البنية الفيزيولوجية

Weber, op. cit. p. 21.

على الأحوال والظروف الداخلية Internal Environment للمدينة بما فيها الأحوال الإجتماعية، والإقتصادية، والفكرية والبنيوية التركيبية، وبذلك فإن تعريف المدينة حسب رأي Park أحد المشاركين في ذلك الكتاب المذكور آنفا هو:

'It is a natural habitat of civilized man, because it represents a cultural area with peculiar cultural types'

وبالإمكان تحديد المدينة حسب رأيه بأنها

"Any settlement where the majority of occupants are engaged in other than agricultural activities"

أو أنها:

"Cities are basically population aggregates are large"

heterogenous and densely settled within a limited land area [1].

ولذلك فقد حقّقت نظرية الـ Ecology تقدّماً ملموساً في مجال دراسة المدن، وهيأت اتجاهاً جديداً متمثّلاً بتفحّص البنية الداخلية والخارجية للمجتمعات المتمدنة. وفضلاً عن هذه النظرية فإن هناك نظرية أخرى ركّزت على وسائل النقل والمواصلات ومدى تأثيرها على وجود المدن وتسمى بـ The Theory of Transportation التي نادى بها كولي .Charles H. Cooley فيقول Cooley بينما كانت المدينة في الماضي تقع بالقرب من مؤسسة دينية او قلعة، وبينما اتخذت مدن أخرى لعوامل سياسية فإن الأسباب الأساس لمواقع المدن تكمن في موقعها من وسائط النقل؛ فهي إما أن تقع على فم الأنهار أو على النقاط الرئيسة من الأنهار، أو أن تكون مراكز تجمّع أو نقاط تجمّع على التلال والسهول وغيرها من المناطق التي تأسست فيها المدن؛ فمدينة شيكاغو وكليفلند Cleavland، وديترويت ونيويورك تتركّز أهميتها على موقعها كنقاط ارتباط على الأرض أو على الماء[٢].

فما المدى الذي انتفع فيه المتخصصون أو من كتب، عن المدينة العربيةالإسلامية

---

(1) Egon Ernest Bergel: Urban Sociology (New York 1955). 8.Weber, Op. Cit p. 26.

(2) Weber, op.cit., p. 16.

في نشأتها أو تركيبها، من هذه النظريات؟ واقعيا فإن الدراسات التي كتبت عن المدن الإسلامية قد تأثرت قليلاً أو كثيراً بهذه النظريات والتطورات العلمية التي ذكرناها آنفا، فبعضهم قد مال إلى نظرية الـ Ecology بينما مال البعض الآخر إلى نظرية المؤسسات Institutional Theory وأيدّ آخرون نظرية التمدن Urbanizational Theory. إلى جانب ذلك هناك من نظر إلى المدينة الإسلامية نظرة جامعة شاملة تتضمن عوامل متعددة. فالأستاذ البرت حوراني مثلاً رأى بأن هناك مدناً تحمل صفة واحدة أو وظيفة واحدة وتلك إما أن تكون مراكز تجارية برية ـ نهرية أو موانىء للتجّار وهي التي يطلق عليها بالمدن التجارية تلك التي تتركز وظيفتها في نقل البضائع فحسب لا على إنتاجها. بينما هناك مدن دينية وهناك مدن تقوم بوظائف متعددة فهي تنتج البضائع وتنقلها الى مواضع أخرى في الوقت نفسه. وهناك مدن وظيفتها الأساس إدارية[١]. بينما حاول البروفسور توينبي الإفادة من التفسير الديني الذي اتّبعه في كتابه المشهور (دراسة التاريخ) وذلك بتطبيق القانون على نشوء المدن وأصولها فقال:- كل مدينة قبل عصر التصنيع الحديث كانت مدينة دينية. وهو في مجال آخر من كتابه حول المدن يقول بأنه ليس هناك في أي وقت ومكان مدينة تجارية أو صناعية أو سياسية أو عسكرية أو دينية بصورة مطلقة أو كاملة. والأصح حسب رأيه أن المدن تختلف فيما بينها بتخصّصها المتزايد في أحد تلك الإتجاهات والنشاطات. ففي المدينة التقليدية أوربية كانت أم إسلامية يعدّ الجامع أو الكنيسة أو الكاتدرائية بمعنى تلك المباني أو المؤسسات المتعلقة بالعبادة هي من أهم مؤسساتها. واستشهد بعدد من المدن الإسلامية التي يبرز فيها هذا الإتجاه[٢]. من جانب آخر يميل هاموند M.Hammond إلى أنه ليس بالإمكان وضع صيغة أو مجموعة قليلة من الصيَغ في تحديد معنى أساس للمدينة فقد ادّعى البعض بأن وظيفتها دينية محض بينما وجد آخرون أنها مركز إقتصادي ووظيفتها تعتمد على جمع وتوزيع المواد والبضائع. وفي رأي هاموند أن الاعتماد على حجم السكان وكثافته في تمييز المدينة من القرية الكبيرة أو من Town هو معيار غير كاف[٣].

لقد تطرقنا في الصفحات السابقة إلى النظريات والتفسيرات المختلفة عن أصل

(1) A.H Hourani and S.M. Stern: The Islamic City (A Colloquium, Oxford 1970) p. 9.

(2) Toynbee: Cities on the Move, p. 153.

(3) Mason Hammond: The City in the ancient World(Harvard, 1972), p. 6-7.

المدينة وعناصر نشوئها وأنواعها ولكننا لم نشر إلى الأسّس التي اعتمدتها بعض تلك النظريات في التميز بين المدينة والقرية مثلا. فقد اقترح بعض الباحثين الألمان أن تكون نسبة السكان وكثافته الأساس الأمثل لذلك التميز؛ فالمنطلقة التي يبلغ تعداد نفوسها أقل من ٥,٠٠٠ شخص تعدّ Landstadt أي قرية زراعية تأتي بعدها مدن صغيرة إذا كان تعداد نفوسها ١٠,٠٠٠ شخص ثم متوسطة إذا كان ١٠٠,٠٠٠ شخص ومدينة كبيرة إذا كان حجم سكانها ١,٥٠٠,٠٠٠ شخص؛ وعلى هذا ـ حسب ما ورد في هذا الجدول ـ عدّ A.Lopez لندن وباريس من المدن المتوسطة وذلك نتيجة لعدد سكانهما وعدّ جنوه من المدن الصغيرة[1]. غير أن (هاموند) كما أشرنا آنفا لا يولي أهمية الى حجم السكان أساساً للتميز بينها وبين مدينة أخرى والأهم فإنه لا يعد وجود السور الدفاعي أو حتى السلطة كأساس وحيد في هذا التمييز[2]، أما هوّسر Philip Hauser فلإنه عالم إجتماعي يقدّم شروطاً متعددة للتميز بين المدينة وغيرها من المراكز الحضرية منها: حجم السكان والتقدم التكنولوجي والسيطرة على الظروف الطبيعية وتطور المؤسسات الإجتماعية والإقتصادية والسياسية[3]. علما بأننا خلال تقّصينا وجهة نظر العلماء الغربيين بشأن المدينة العربية الإسلامية وجدنا أنهم دائماً يشيرون إلى الأسّس التي توّصل إليها ماكس ويبر Weber في كتابه (المدينة). فقد وضع ويبر Weber ضمن تصنيفه للمدن خمس سمات ينبغي تواجدها في المكان من أجل أن تكون مرتبته الحضرية بمرتبة المدينة وهي:

١- الحصن أو السور .Fortification

٢- السوق.

٣- المحكمة والقضاء على أن يتمتع بقانون مستقل.

Court of its own and at least partially autonomous law.

٤- نقابة .Form of Association

٥- حكم ذاتي مركزي على الأقل Autocephaly قائم على انتخاب أعضاء الماكنة

---

(1) Lopez, A: " The cross roads within the Wall" in Historian and the City p. 30.

(2) Hammond, Op.Cit, p. 6-7.

(3) Philip Hauser: "Urbanization: An Overview in the Study of Urbanization, p. 1-2.

أو الجهاز الإداري[١].

ويبدو أن ويبر Weber قد أفاد مما عرضه آشلي Ashley من سمات أربعة تأسيسا على المدينة الألمانية دون غيرها وهذه السمات هي:

١- المدينة حصن Befestigt وتعدّ من السمات الهامة إذ إن كلمة Burg لم تتحول الى Stadt (مدينة) إلّا بعد سنة ١١٠٠م. أما السور فكان على شكل دائري أو على شكل خندق.

٢- المدينة المكان الذي يتّسم بصفة الأمن وبمرور الزمن تتغير صفات المدينة، وتصبح التجارة حقّ بيد الملك.

٣- المدينة هي مجتمع القانون للمصلحة العامة. فالقانون والمحكمة هما الأساسان المهمّان من أجل أن تكون المدينة مدينة فعلاً[٢]. إننا في الوقت الذي نذكر فيه هذه التحديدات الغربية الحديثة للمدينة لا بدّ من القول بأن هناك تحديدين قديمين أحدهما يوناني والآخر إسلامي يتناولان تقريباً الأسس نفسها الواردة عند كلّ من آشلي وويبر. فقد وصف اليوناني Pausanias the Periejete المتوفى ١٧٦م المدينة كما يأتي:

" A city of the Phocians, of one can give the name of city to those who posses no government offices, no gymnasium, nothearte no market, no water descending to a fountain, but live in bare shelters just like mountain cabins, right on a ravine. Neverthless they have boundaries with their neighbors, and send delegates to the Phocian assembly "[٣].

فالسلطة، والجمنازيوم، والمسرح، والسوق، وماء الشرب، وتحديد الحدود، وأعضاء أو ممثلون عن المدن في المجلس هي السمات التي تحدّد المدينة في رأيه. وهذه جميعها إذا ما جمعت تجدها تتضمن عدداً من الأسس التي حدّدها المحدثون

(1) Max Weber: Op.Cit, p. 81.

(2) Ashley: "The beginnings" p. 352-84.

(3) Cited by von Grunebaum, The Muslim Town and the Hellenistic town " in Scientia (1955) p. 364.

الذين سبق ذكرهم. أما التحديد الإسلامي للمدينة فيتمثل في أوصاف بعض البلدانيين والجغرافيين كالمقدسي في أحسن التقاسيم وياقوت الحموي في معجم البلدان. يذكر المقدسي رأي الفقهاء في المصر بأنه ((كل بلد جامع يقام فيه الحدود ويحلّه أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه[1])، ثم يعقّب على ذلك بأن المصر هو كلّ بلد حلّه السلطان الأعظم وجمعت إليه الدواوين وقلّدت منه الأعمال وأضيف اليه مدن الأقاليم، وربما يكون للمصر أو القصبة نواح لها مدن)). وقد شخّص ياقوت الحموي جملة من السمات التي تتسم بها المدينة، منها أن تكون كبيرة، آهلة بالسكّان فيها مسجد جامع ومنبر ومياهها غزيرة وذات خيرات وموارد إقتصادية زراعية أو تجارية. فيقول مثلاً عن مدينة قيسارية إنها من أعمال فلسطين: ((وقد كانت قديماً من أعيان أمّهات المدن. واسعة الرقعة، طيبة البقعة، كثيرة الخير والأهل، وأما الآن فليست كذلك وهي بالقرى أشبه منها بالمدن))[2].

فلو أحصينا عدد ما صنف عن المدينة العربية خلال المدة الإسلامية أو المدد الحديثة من المؤلفين والعلماء العرب لوجدناه لا يمثّل إلا جزءاً ضئيلاً مما كتبه المؤلفون والمستشرقون الأجانب. والأكثر من هذا فإن أكثر ما كتبه المؤلفون العرب لم يكن سوى دراسات تاريخية لهذه المدينة أو تلك دون الاهتمام بوصفها وفلسفة نشوئها مقارنة بالمدينة الأوربية القديمة والوسيطة ودون الاهتمام بمقوماتها وعناصر تكوينها. في الوقت الذي نجد فيه الدراسات الأجنبية، على الرغم من قصورها ونواقصها، تناولت المدينة العربية إسلامية أو حديثة من جّميع مناحيها التاريخية وإبراز أهميتها وموضعها في حركة التمدن، وتركيبها وبنيتها من الجوانب الأثرية والجغرافية، وتحديد وظيفتها.

وواقعا فموضوع التمدن الاسلامي قد نال اهتماما واسعاً عند المؤلفين الغربيين منذ - تقريباً - الحقبة الأولى من القرن العشرين. وكما هو الحال بالنسبة للدراسات الإستشراقية بصورة عامة فإن المؤرخين أدوا دورابارزا في هذه الدراسات. ومجرد نظرة سريعة إلى قائمة أسماء من كتب عن المدينة العربية الإسلامية والتمدن الاسلامي

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٤٧.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان (ط. بيروت) ج٤ ص ٤٢١، أيضاً ص ١١٤، ج٥، ص ٣٩٦، ٣٨٩.

خلال تلك الحقبة والتي تلتها من القرن العشرين تثير تساؤلاً ودهشة عن الأسباب التي دفعتهم إلى هذا الاهتمام؟ فهل هو حبّ الإستطلاع العلمي فحسب؟ لكننا قبل الإجابة عن هذا التساؤل لابد من القول بأن أغلب - أو بالأحرى الغالبية العظمى - هذه الدراسات الأجنبية عن المدينة العربية في المدة الإسلامية حوالي منتصف القرن العشرين تمثّلت بالعلماء الفرنسيين. ليس هذا فحسب إنما بالإمكان تحديد الرقعة الجغرافية التي شغلت اهتماماتهم، فهي بالدرجة الأولى كانت شمال أفريقيا وبضمنها مصر ثم بلاد الشام (سوريا) وبدرجة أقل العراق، وأقل بكثير من ذلك المشرق الاسلامي. ومما لاشك فيه إن هذا التحديد الجغرافي لاهتمامات العلماء الفرنسيين سيساعد في الوصول إلى توضيح الدوافع التي شجعت العلماء من فرنسا على القيام بتلك الدراسات ألا وهو الدافع السياسي، ولاسيما إذا ما ألقينا نظرة سريعة إلى الخارطة السياسية للمنطقة العربية والإسلامية في مدة ما بين الحربين واهتمامات ونزاعات الدول الكبرى آنئذ حول الإستحواذ على هذه المنطقة وتقاسم الغنائم السياسية والأهم الإقتصادية والتوسعية. فضلاً عن هذا فإنه ينبغي عدم تجاهل أثر الدوافع والعوامل الأخرى. فالنصف الأول من القرن العشرين شهد تطوراً ملحوظاً في نمو الدراسات الإستشراقية في أوربا ولاسيما في فرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا سواء أكانت مناوئة للإسلام ودور المسلمين الحضاري أم مؤيدة له. فكتابات لامانس وبلاشير وسوفاجيه وبروفنسال ولويس ماسينون وبهل وديمومبين ودوزي وفلوجل وفيل (أو فايل) ودي ماسيه وكاترمير وفنسنك ونولدكه وكرونباوم وترتون وشاخت وتشنر وبروكلمان وعشرات آخرين من المستشرقين بعضهم كرّس جهودا مضنية في تحقيق المخطوطات الإسلامية والآخر توجّه الى الدراسات الفلسفية والتصوفية وثالث انشغل بالدراسات التاريخية والحضارية وهلمّ جرّا. ومع هذا فلعله يمكننا القول بأن الطابع الغالب على اتجاهات المؤرخين والمختصين من المستشرقين الفرنسيين كان يتركّز على المجالات الإجتماعية والفكرية والحضارية. وهذا ربما يدفعنا إلى التنبه إلى دافع آخر يضاف إلى عامل التوسع والتطّور في الدراسات الإستشراقية والمتمثّل بدور فرنسا في الحركة الفكرية والسياسية والفلسفية، وهو دور مشهور لا نبغي الوقوف عليه كثيراً فحركة الأنسكلوبيديين والتنويرين إنما انطلقت من فرنسا. فضلاً عما جاءت به الثورة الفرنسية من أفكار سياسية واجتماعية واقتصادية ظهرت بفعل النشاط الفكري لمفكري ومثقفيّ المجتمع الفرنسي. فضلا عن ذلك فإن المدينة الفرنسية ومن ثم الأوربية أدّت دوراً فعالاً في النشاط الإقتصادي والإجتماعي وفي عملية إضعاف المجتمعات

الإقطاعية قبل عصر النهضة.

وهناك مسألة أخرى تجلّب الإنتباه بخصوص الدراسات الفرنسية حول المدن العربية الإسلامية أو الحديثة فهي قد ركّزت - من بين ما ركّزت عليه من مجالات - على دور بعض المؤسسات الدينية كالنقابات والبنوك والحركات الجماهيرية. وهذا بدوره يثير تساؤلاً آخر حول الدافع الأساس أو الدوافع الضاغطة الموجّهة لمثل هذه الإتجاهات، فمن المعروف تاريخياً وفي حقل المدن خاصة أن لويس ماسنيون يعدّ من أشهر وأبرز المدافعين عن وجود نقابات مهنية في المدينة الإسلامية الوسيطة. وعن علاقة النقابة بالسلطة من جهة وبالحركات المعارضة من جهة أخرى. فهل كان هذا بتأثير من الحركات النقابية في المدن الفرنسية؛ لأنه من المعروف في الوقت الحاضر أن اتحاد النقابات والحركات الإشتراكية في إيطاليا وفرنسا تؤدي أدواراً فعّالة في التطوّر السياسي للمدينة في تلك البلدان؛ فمن المحتمل جداً أن نمو المدينة الفرنسية ومن ثم الأوربية ودورها في التطوّر الصناعي ونمو الحركة النقابية وعلى حصولها موقعاً سياسياً متميّزاً لاتخإذها المنهج الإشتراكي أسلوبا ووسيلة في محاربة الرأسمالية يعدّ محركاً أساسياً في توجيه اهتمامات المؤرخين والمعنيين بالمدن الأوربية والغربية من الفرنسيين في التركيز على مثل هذه الموضوعات. فالمؤرخ يتأثر كثيراً بالأحداث والتطورات الإجتماعية والإقتصادية والفكرية والسياسية التي يشهدها أي مجتمع من المجتمعات. ومن الجدير بالذكر إن المدينة الفرنسية والمدن الأوربية الأخرى تملك رصيداً تاريخياً قديماً فباريس ومارسيليا وفلورنسا وغيرها من المدن قد أدّت ادواراً كبيرة خلال مدة الإنتعاش الإقتصادي في القرن العاشر الميلادي في حوض البحر الأبيض المتوسط مما جعلها تدخل ميدان التجارة والصناعة في آن واحد، وظلّت بعض هذه المدن محتفظة بهذه السمات المتطوّرة.

إتّسمت المدرسة الأوربية - إذا ما جاز التعبير - وبضمنها الفرنسية، والألمانية، والإنكليزية في دراساتها عن المدن عموماً والعربية الإسلامية خاصة بتركيزها على نظرية المؤسسات Institutional Theory وهي تختلف عن نظرية الـ Ecology التي كانت سائدة في دراسات التمدن وما زالت تطبّق في الوقت الحاضر وهي النظرية التي تميّزت بها الدراسات الأمريكية بشكل واضح. ولما كانت أكثر الدراسات عن المدينة العربية الإسلامية فرنسية فإننا سوف نبدأ الحديث عن أهميتها بالنسبة إلى موضوعنا. وهذه الدراسات يمكن تقسيمها على ثلاثة رؤى وتفسيرات أو اتجاهات:-

١- الإتجاه الأول المتعلق بالمدينة العربية الإسلامية بصورة عامة من حيث دراسة مقوماتها وخصائصها، وفيما إذا كانت هناك وحدة موضوعية في تركيبها وبنيتها أم لا؟ ومدى تأثرها بالمدينة الهلينية، واليونانية، والرومانية؟.

٢- أما الإتجاه الثاني فيتمثّل بالدراسات التي تناولت تاريخ مدينة مفردة من المدن العربية الإسلامية عبر حقب تاريخية مختلفة.

٣- أما الإتجاه الثالث والأكثر حداثة فهو المتمثّل بالتركيز على الحركات الإجتماعية والشعبية تلك التي أخذت تتحرك ضدّا بالسلطة المركزية داخل المدن بوصفها ظاهرة تمدنية مستقلة.

(١) يحتل البروفسور لويس ماسنيون مركز الصدارة في قائمة المؤلفين الذين يمثلّون الإتجاه الأول. ولقد بقيت أفكاره ولا سيما تلك المتعلقة بالنقابات الإسلامية مثار نقاش وجدل، وتأييد وتفنيد حتى الوقت الحاضر. فقد تناول ماسنيون هذا الموضوع بوضوح في مقالته في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة قديمة) بعنوان Sinif، ثم تناولها أيضاً في بحث آخر بالفرنسية بعنوان (الأصناف والمدينة الإسلامية)[١]. ومن أهم الأمور التي تطرّق إليها في هاتين المساهمتين هي: المدينة الإسلامية سواء أكانت في المغرب أم المشرق قد استندت الى أربعة مراكز إقتصادية.. أولها المركز الخاص بالصرف وهو ثابت ويعد مركزاً مهماً، ويوجد حوله مكان جمع الضرائب، ودار الضرب ومؤسسة المحتسب. وهنا أيضاً يتوافّر الحمالّون بسبب وجود سوق الدلالة Auction. ومن المناسب ذكره أن ماسنيون اهتم بدراسة وضع البنوك في المدينة الإسلامية؛ فقد كتب بحثا حول (أثر الإسلام في العصر الوسيط على تأسيس البنوك اليهودية وتطويرها)[٢]. أما ثانيهما فهو القيصرية، والثالث سوق الغزل وفي هذا السوق يتواجد أصحاب الحرف التي تحتاجها النساء اللواتي يجلبن ما لديهنّ من غزل للبيع في السوق، ويتوافر فيه القصّابون والخبّازون؛ أما المركز الرابع فهو الجامعة التي

---

(1) L. Massignon: "Les Corps de metiers et la cite Islamique" in Revue Interna tlenal de Sociologie (vol 28/1920) pp. 173-99.

(2) Massignon, L, "L'influence de L'Islam au Moyen Age sur la fondation et l'essor des banques Juives" in Bulletin d'Etudes Orientales (I/1931) pp. 3-12.

تؤسس إعتيادياً بشكل ملاصق أو مجاور للمسجد الجامع[1]. وتتوزع ضمن هذه المراكز الأربعة وحدات أخرى نظير النقابات إذ كان المعتاد أن كل نقابة تشغل سوقاً خاصاً بها. والملاحظ على التقسيم الذي حدّده ماسنيون لخصائص المدينة الإسلامية أنه لا يشمل التقسيم الطوبوغرافي إنما يتعلق بتوزيع الأسواق وعلاقتها بالنقابات فحسب. وهي مسألة وسّعها فيما بعد كرونباوم في بحثه (بنية المدينة الإسلامية)[2]. أما الملاحظة الثانية التي وردت في مساهمات ماسنيون قوله إن المدينة الإسلامية منذ القرن التاسع الميلادي أخذت تشهد وجود نقابات ومؤسسات حرفية وأن وجودها يرتبط بالقرامطة. فالنقابة الإسلامية بخلاف النقابة الأوربية قد اتسمت بسمة المعارضة للسلطة (بمعنى الخلافة العباسية). وهي تكوين ذاتي لا انعكاسي لسياسة الدولة فهي قد تولّدت نتيجة للحاجات الإجتماعية التي كانت تعاني منها الطبقة العاملة وظلّ هذا الدور سائداً في النقابة الإسلامية حتى القرن العشرين. فالنقابات في مدينة فاس (في شمال أفريقيا) ما زالت تحتفظ بسمة المعارضة للدولة[3]. فتأكيد ماسنيون على دور النقابة ينطلق من تركيزه على أن المدينة الإسلامية ـ على وفق فلسفة المدن ـ كانت مدينة حقاً بسبب من أن النقابة حسب المفهوم الغربي للمدينة تعدّ من أهم المؤسسات التي تتصف بها أي مدينة. وهو في الوقت نفسه يدلي بعدد من الأدلة التاريخية بهدف تعليل رأيه حول ارتباط النقابة بالقرامطة؛ منها إشارته إلى رسائل أخوان الصفا وخلّان الوفا ولاسيما رسالتهم حول تمجيد العمل وتكريمه. ومنها علاقة القرامطة بأصحاب الحرف وطبقات العمال، ومنها اختلاف مكانة النقابة في مصر زمن الفاطميين موازنة بما هو موجود في العراق زمن العباسيين.

والحقيقة فأهم ما تحتاجه أفكار ماسنيون بشأن النقابة كمؤسسة مدينية النصوص التاريخية من أجل دعمها وتقويتها والتدليل على وجودها في المدن الإسلامية منذ القرن التاسع الميلادي. وهو الأمر الذي دفع تلميذه برنارد لويس إلى دراسة (النقابة

(1) Massignono: " Les corps" p. 473, B. Lewis: " The Islamic guilds" in The Edonomic History Review (VIII/1237)P. 20.

(2) Von Grunebaum:"The Structure of the Moslim Town" in Islam, Essays in the Nature and Growth of a cultural tradi tion (London 1961) p. 145-47.

(3) Massignon, L: "Les corps de metitrs" pp. 474-5

ويقول فيها:

Un esprit de frondeur tre's particular centre le souverain".

الإسلامية)[١]، متتبعا بذكاء أدوارها وفعالياتها وارتباطها بالقرامطة والاسماعيلية منذ القرن العاشر فصاعداً. حتى أنه اعتمد على بعض الدراسات التركية الحديثة المؤيدة لوجود تأثير قرمطيّ على نقابات أناضوليا في القرن الثالث عشر للميلاد. إذ يذكر الأستاذ كوبرلو Koprulu في كتابه (أصول أو جذور الإمبراطورية العثمانية)[٢]، إن النقابات هناك كانت مؤسسة على نظام الدرجات نفسه الذي كان معروفا في التنظيم القرمطيّ[٣]. واعتمد لويس أيضاً على ديوان فارسي هو (ديواني خاكي خورساني) Davani Khaki Korasani. والديوان هو شعر في اللغة الفارسية وهو اسماعيلي الأصل يرجع إلى القرن السابع عشر الميلادي ويحتوي على مقطع كامل يتناول فيه مناقشة مهمة النقابة ووظيفتها[٤]. وبالإضافة إلى دراسة ماسنيون السابقة عن النقابة فإن الموضوع أصبح مجالاً للبحث أيضاً عند بعض الباحثين الفرنسيين الآخرين أمثال أتجر Ateger فبحثه (النقابات التونسية) إذ تتبع فه المؤسسات الحرفية منذ المدة الإسلامية المبكرة مركّزاً على وضعيتها في المدة الحديثة. فأشار مثلاً إلى الرواية التي أوردها ابن عذاري ومفادها أن والي القيروان أمر بإعادة تنظيم الأسواق على أن يخصص لكل مهنة مكاناً أو موضعا مستقلاً[٥] لها. كما أن ماسنيون أسهب في بحث آخر حول الحرف الإسلامية والحرفيين والتجارة في مراكش في المدة الحديثة[٦] معتمداً فيها على بعض مؤلفات الصنائع والمهن التي كتبت في سنة ١٩٢٣م، وقد ترجم نصوص هذه الكتيبات إلى اللغة الفرنسية.

وبينما كانت الصفة المتميّزة لدراسات ماسنيون تؤيد وجود نقابات في المدن الإسلامية ووجود قواعد متشابهة في توزيع الأسواق وعلاقتها بالنقابات نجد في كتابات الأخوين وليم مارسيه وجورج مارسيه الفرنسيين تطوّراً جديداً يتمثّل بالاهتمام

---

(1) B.Lewis: " The Islamic Guids" pp. 30-37.

(2) M.Koprulu: Origines de L'Empire Ottoman, Paris 1935 وقد ترجم إلى العربية.

(3) Ibid, p. III, B.Lewis, Op, Cit, p. 26.

(4) B.Lewis, p. 25.

(5) Ateger: Les corporations tunisiennes Paris 1909 as cited by B.Lewis, p. 21.

ينظر أيضاً ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب، ليدن ١٨٥١، ص ٦٨.

(6) Massignon: "Enquets sur les corparation d'artisans et de commercants au Marco" in Revue du Monde Musulman (LVIII/1924) PP. 1-250.

بالمتشابهات الطوبغرافية في المدن الإسلامية وما يمكن تسميته بوحدة التمدن الإسلامية Pan Islamic urban order. ففي بحثه الموسوم بـ (الإسلام والتمدن)[1]، ركّز وليم مارسيه على الطابع الذي تميزت به المدينة العربية إسلامية. فالإسلام لم يظهر إلا في مجتمع الطقوس والشعائر الإسلامية ولا سيما الصلاة الجامعة؛ ففي المدينة يجد المرء فضائل الإسلام المتمثّلة بالمسجد الجامع والمدارس الدينية. وفي المدينة يبرز التوزيع الطوبغرافي للسكّان وموقع المقبرة في خارج السور. لقد كرّر جورج مارسيه الأفكار نفسها الرامية إلى إظهار أثر الدين الإسلامي في المدينة وإظهار وحدة المدينة الإسلامية وعناصر تشابهها في بحثين الأولى منهما بعنوان (مفهومية المدن في الإسلام)[2]. أما الثاني فعنوانه (التمدن الإسلامي)[3]. وقد عرض في البحثين المذكورين ظروف نشأة المدينة الإسلامية ووظيفتها، وأن مؤسسيها لم يهملوا أي جانب في المجال التخطيطي ففكروا حتى في مسألة تصريف المياه وتجهيزه للبيوت والجوامع[4]. كما أنه أثار موضوعاً طريفاً لكنه لم يقف عليه طويلاً إلا وهو تقسيم المدينة العربية الإسلامية على صنفين تلك التي كان للدين الإسلامي أو بالأحرى لحركات الفتوح الإسلامية الأثر البالغ في نشأتها وإيجادها كما هو الحال في الأمصار الإسلامية التي لم تكن موجودة سابقاً ولم يكن تخطيطها قديماً، وبين الأخرى التي كانت أصلاً موجودة قبل الفتح الإسلامي وكانت تتمتع بمكانة مرموقة في عالم التمدن منذ المدة اليونانية والرومانية. فوجود الأمصار الإسلامية كان رد فعل بل نتيجة حاجات ملحّة فرضتها عملية الفتوح الواسعة. كذلك وقف جورج مارسيه في بحثه (التمدن الإسلامي) على الخصائص المشتركة التي تتشابه فيها المدن الإسلامية. وفي الوقت الذي شدّد فيه ماسنيون على السمات الأربعة في المدينة العربية الإسلامية السابقة الذكر من الوجهة الإقتصادية نرى مارسيه يركّز على التوزيع السكّاني الذي يقول عنه بأنه كان يتصف بالعزلة والأنفصال. فالعزلة الإجتماعية تعد ـ حسب رأيه ـ

---

(1) W.Marcais: "L' Islamisme et la vie urbaine" in Comptes Rendus des Seances (Academie des Inscriptions et belles- lettres (1928) pp. 86-100.

(2) G.Marcais: "La conception des villes dans L'Islam" in Revue d'Alger (11/1945) pp. 517-33.

(3) G.Marcais: "L'urbanism musulman" in Melanges d' Histoire et el' Archeologie de L;Occident Musulman (I/1957_ pp. 219-231.

وقدّمها في أول الأمر إلى مؤتمر تمّ عقده في سنة ١٩٤٠.

(4) Idem, p. 224-6.

أهم سمة في تكوين المدينة السكّاني، ويشير بعدها إلى أن السوق، وهو مركز الحياة التجارية وشريانها، و يقع حول المسجد الجامع. فيذكر الأسواق المتواجدة في هذه المنطقة، أي بالقرب من المسجد الجامع، كباعة الكتب ومجلديّها، وكان يحتّل إلى جوارهم صانعي الأحذية (الإسكافيون) والنجّارين والخيّاطين وأصحاب السجاجيد، وبعد ذلك الدبّاغين والصبّاغين. ويجد المرء الى القرب من مدخل المدينة باعة السروج والصفّارين، وإلى جانب السوق كان هناك السور والمقبرة. وأما داخل المدينة فيتصف بوجود شارع أو اثنين يقسم المدينة على عدة محلات. وهو يستشهد بذلك بعدد من مدن شمال أفريقيا أمثال فاس، وتلمسان، وسالي. والواقع أن تصور مارسيه للأسواق المجاورة للمسجد الجامع متأثر أيضاً بما هو متوافرفي بعض مدن شمال أفريقيا. والتخطيط كما يبدو قد أثر كثيراً على الوصف الذي أورده كرونباوم الألماني ـ الأمريكي في دراسته حول المدينة الإسلامية؛ فهو أيضاً يرسم التوزيع نفسه الذي أشار إليه مارسيه مع إضافة وحدات طوبوغرافية أخرى إلى جانبها[1]:

وفي الوقت الذي تعرّض جورج مارسيه ـ بصورة مقتضبة ـ إلى المدن الإسلامية التي تأسست نتيجة للفتوحات الإسلامية أوإلى تلك التي كانت موجودة قبل ذلك؛ فإن أدموند بوتي E.Pauty قد خصّص بحثا جيدا عن هذا الموضوع وهو (المدن الذاتية والمدن المخلوقة)[2] فقد ردّ بوتي في هذه الدراسة على مجموعة من الآراء التي أخذت تظهر في دراسات بعض الباحثين المستشرقين الفرنسيين خلال هذه المدة (العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين) الداعية إلى تأثر المدينة الإسلامية كثيراً بالمدينة الأوربيةوالهلينية واليونانية والرومانية.

ومع أن بوتي كان أثرياً وليس مؤرخاً إلا أنه نجح في عرض آرائه في تصنيف المدن الإسلامية إلى هذين الصنفين أي المدن الذاتية والمقصود بها تلك المدن التي نمت وتطوّرت عبر فترات تاريخية طويلة نتيجة لعدّة ظروف تتّعلق بموقعها الجغرافي ومركزها التجاري وأنها على طرق النقل والتجارة. والمدن المخلوقة تلك المدن التي تأسست بأمر من الدولة أو الأمير لكي تكون عاصمة لها أو له ومقرّاً لحكمه أو متنزهاً

---

(1) Von Grunebaum: "The Structure of Moslim Town" pp. 145-47.

(2) E.Pauty: "Villes Spontanees et Villes crees" in Annales de L;Institul d'Etudes Orientales" LX 1951, pp. 52-75.

له. لذا فالمدينة المخلوقة قد يكون وجودها مرتبطاً بوجود ذلك الأمير أو الوالي أو تلك الدولة، ولكن من أجل أن تبقى حيّة لمدة طويلة فإن بوتي قد ركّز على العوامل الإقتصادية والسياسية والإجتماعية كعوامل حيوية في إنجاح ذلك. ويرى بوتي بأن عدد هذه المدن التي نشأت دون تخطيط مسبق ودون أن ترث تصميماً أو مخططا قديماً أكثر من تلك التي كانت خاضعة لتصميم أو لمخطط سابق. لقد أثرت دراسة بوتي تأثيراً واسعاً في الدراسات التي تناولت المدن الإسلامية سواء الأوربية منها أم الأمريكية، وأنقسمت بين مؤيد ومفند. ومن الجدير بالذكر أن بوتي قد أسهم بعمل آخر أثري لم يبلغ الأهمية التي حصلت عليها دراسته السابقة[١].

ولعله من الممكن الإشارة هنا إلى كتاب موريس لومبارد Lombard (العصر الذهبي للإسلام)[٢]. الذي ترجم من اللغة الفرنسية إلى الإنجليزية، ضمن الحديث عن هذا الإتجاه من الدراسات. والكتاب عموماً لم يكن عن المدينة أو التمدن الإسلامي حصرا بل عن قضايا متعددة، ولكن المؤلف قد خصّص فصلاً مسهباً عن الإسلام والتمدن الاسلامي تطرق فيه إلى مدن شمال أفريقيا مثل القيروان وفاس القديمة والحديثة، وتلمسان والمهدية كما تعرّض إلى بعض المدن السورية والعراقية والأندلسية زمن الفتح الإسلامي. والأهم من ذلك فإنه أدلى بآراء إيجابية بالنسبة لعلاقة الإسلام بالتمدن فهو يقول مثلاً :-

From the 8th to the 11th centuries the Muslim World was the scene of prodigions" urban expansion. This expansion wascharacterized at first by the creation of towns, some of which rapidly became the largest in the world"[٣].

كذلك أشار إلى أن تقدّم التمدن الإسلامي كان أكثر بعداً وتاثيراً موازنة بالتمدن الروماني وهو يضاهي التطوّر التمدني الذي شهدته المدة الهيلينية ومدة نمو المدن في أوربا الغربية[٤]. إذ شهدت منطقة شمال أفريقيا خلال المدة من القرن الثامن الميلادي الى القرن الحادي عشر الميلادي ظروفاً وتطورات عامة شجّعت كثيراً على النمو

---

(1) Panty: palais et maison d' epoque musulmane au caire (caire 1933).

(2) M.Lembard: The gelden age of Islam crans. By Joan spencer (Netherlands 1975).

(3) Ibid., p. 118.

(4) Ibid., p. 118,119.

التمدني إذ تأسست فيها مدن عديدة جديدة في هذه المنطقة[1].

وخلاصة القول فإن الدراسات السابقة على الرغم من تركيزها على مدن شمال أفريقيا، وعلى الرغم من قلّة الإستشهاد بالمصادر الإسلامية وتبنيها صفات عامة فإنها قد أرست عدداً من المسائل الهامة المتعلقة بالمدن الإسلامية التي دارت حولها النقاشات، ومن هذه الأمور:-

١- إن هناك مدينة عربية إسلامية لها صفات متشابهة ووحدة متماسكة في البنية والتركيب.

٢- واقعية الأثر الفعّال للإسلام على بنية المدينة.

٣- وجود عدد من المؤسسات المدينية.

على أن هذا لا يعني أن جميع الدراسات ضمن هذا الإتجاه كانت إيجابية في نظرتها للمدينة العربية الإسلامية فقد عرض عدد من المستشرقين الفرنسيين آراء أخرى مخالفة لتلك التي شدّد عليها ماسنيون وغيره؛ إذ أوردوا صوّراً مخالفة وسلبية عن المدينة الإسلامية. فكتاب سوفاجيه Sauvaget بخصوص مدينة (حلب) ودراسته عن (اللاذقية ودمشق)، التي سيتم ذكرها ضمن الإتجاه الثاني من تصنيفه، يتعلقان بتخطيط هذه المدن، وبأن هذا التخطيط لم يكن إسلاميّا بل قديماً؛ وبأن المسلمين لم يضيفوا شيئاً من الناحية التخطيطية على تلك المدن بل أبقوا تخطيطها السابق ولم يطوّروا وضعها الحضري، وما أضافوه من خطط في هذه المدن قد أدت في الواقع إلى اضطراب وحدتها وتشويه تركيبها التخطيطي وبنيتها العمرانية الداخلية. ويصل سوفاجيه الى نتيجة مفادها أن المدينة الإسلامي ماهي في حقيقتها إلا تقليد للمدينة الأوربية القديمة[2]. بينما أوضح كارديه Cardet فكرة خلو المدينة الإسلامية من المؤسسات الإدارية؛ فضلا عن عدم تمتعها بالاستقلالية، وليس لابنائها أي شعور بالمواطنة سواء كان ذلك على مستوى الفرد الواحد أو أي شعور جمعي. وكارديه من الجهة الأخرى يشير إلى ماسنيون ونظريته في النقابة مبديّا رأياً (مؤيداً) لوجود نقابات

---

(1) Ibid., p. 135.

(2) Sauvaget, J: Alep (Paris 1941) pp, 78-9, 104-105, idem "la plan de Laodicee sur mer" in Bulletin d'Etudes Orientale (1934) pp. 99-102, (Halab) in(El (2).

في المدن الإسلامية[١]. وهناك أيضاً دراسة الأستاذ هنري بيرين Pirenne التي أشرنا إليها آنفا وتدور حول موضوع (مدن العصور الوسطى) وبحثه الآخر (المدن مجتمع التجّار). ففي كتاباته هذه يقول بأن سبب انحطاط تجارة أوربا عامة والتجارة في البحر المتوسط على وجه الخصوص يرجع إلى الفتوحات الإسلامية التي يسميها بـ (الغزو الإسلامي)؛ ويقول بيرين إن التقدم الإسلامي في الواقع قد دمّر أوربا القديمة ووضع حدّاً لرخاء البحر المتوسط:-

Its sudden thrust and destroyed ancient Europe. It had put an end to the "Mediterranean Commonwealth"[٢].

ويعزو بيرين إنحطاط إقتصاد المدن من أمثال مارسيليا وبلاد الغول والبروفانس Provence إلى التقدم الاسلامي. ولم يقتصر الأثر السلبي لحضارة البحر المتوسط على هذا فحسب بل إنه أدّى أيضاً إلى اضطراب العملة النقدية[٣]. وظلت نظرية بيرين شائعة في الدراسات الأوربية منذ ظهورها فصاعداً وقد استغلت أيضاً في مجال التمدن بصورة عامة. فقد أرجع مؤيدوها عوامل انهيار التمدن في الهلال الخصيب وشمال أفريقيا إلى الفتوحات الإسلامية؛ ويعدّ بلانهول أكسفير Planhol Xavier من أبرز الممثلين لهذا الإتجاه في النظرة السلبية المعارضة؛ فكتابه (العالم الإسلامي)[٤] المترجم من اللغة الفرنسية إلى الإنكليزية الذي يتمحور حول الوضع الإقتصادي في القرن الثامن الميلادي ينقسم عموماً على أربعة فصول تشير جميعها إلى أنه كتاب في الجغرافية أكثر منه في التاريخ. فضلاً عن هذا فإنه خال نهائياً من الهوامش والمصادر غير أنه ذكر في نهاية المطاف قائمة بالمصادر العامة لكل فصل من فصوله. والمؤلف يشير فقط إلى المصادر التي استقى منها المعلومات التي تفيد وجهة نظره من أمثال مؤلفات سوفاجيه وثوريه بلباس Balbas الذي كتب عن المدينة الإسلامية في أسبانيا وويلرس Weulersse الذي كتب دراسة عن أنطاكيه من وجهة نظر جغرافية المدن. لكن بلانهول أكسفير من الجانب الآخر يقلّل من أهمية معلومات وآراء ماسنيون وبوتي،

---

(1) L. Gardet: la Cite' Musulmane (Paris 1954) p. 259-60.

(2) H. Pirenne: Medieval cities, p. 24.

(3) Ibid, pp. 35-6.

(4) Xavier de Planhol: The World of Islam New York, 1959.

ويتّهم الأخير بأنه ركّز على الأوصاف الظاهرية للمدينة ولم يكترث لأهيمتها التاريخية[1]. فالصفة الرئيسة للمدينة العربية كما يرى ذلك بلانهول أكسفير Xavier هي الفوضى في التخطيط وعدم وجود أي أسس تخطيطية ثابتة فيها، وأنها خالية تماما من أي وحدة تركيبية أو بنيوية، وهي ضعيفة التماسك بخلاف المدينة الرومانية ومدن أوربا في العصور الوسطى، والمدينة الإسلامية أيضا خالية من المؤسسات[2]. أما رأيه في طبيعة العلاقة بين الإسلام والمدينة فإنه يقول: - الإسلام لم يفلح بأن يأتي بالبديل عن المدن التي قد خضعت للفتوح (وهو في هذا الرأي متأثر بسوفاجيه) أوالتي ورثت تمدناً متماسكاً قديماً. فالإسلام ببساطة قد قدّ تلك المدن الموجودة أصلا، فالسوق Bazaar ما هو في الحقيقة إلّا Colonnaded Avenue الروماني، والقيصرية ما هي إلا الـ Basilica الرومانية، وحتى الحمام كما يقول بلانهول أكسفير Xavier هو الـ Therma أي الحمام اليوناني القديم[3]. في حين وقف كرونباوم موقفاً غير مؤيد لعدم اقتناعه بأن يكون الحمام الاسلامي الذي تميّزت به المدينة الإسلامية وريثاً للثرما Therma[4] اليونانية. ويرى بلانهول أيضاً أن الإسلام لم يبتدع فكرة تقسيم المدينة على محلات فهومفهوم أوربيّ الأصل. وباختصار فالإسلام لم يؤثر أبداً على فلسفة تكوين المدينة بل بخلاف ذلك فإنه بإحلاله بعض الطوبغرافيات يكون قد دمّر شكلها القديم وهيأتها الموحدة فجاءت النتيجة سلبية وبخلاف ما هو مفهوم من وجهة نظر التمدن[5]. وحسب رأيه فالدين الإسلامي لم يكن مشجعاً أو عاملا دافعاً إيجابياً لحركة التمدن في المنطقة؛ لأن الشوارع في داخل المدينة كانت ضيقة جدّا مما أدّى إلى عرقلة فعالية الحركة والنقل؛ لكن التأثير الوحيد - كما يصرّح هذا المستشرق - للإسلام على المدينة يمكن تلمّسه في بناء[6] الدور والمنازل. والملاحظ أن أكسفير Xavier يردّد دون تقصي أوتحري أكثر المعلومات التي أدلى بها المستشرق سوفاجيه تلك المتعلقة بمدينة حلب وبعض مدن سوريا وفاتته الحقيقة كون مدينة حلب لا تمثل المجموعة الكبيرة للمدن

---

(1) Ibid., p. 18-19.

(2) Ibid., p.7-8.

(3) Ibid., p.22-23.

(4) Von Grunebaum: "The Muslim Town and the Hellinstic" p. 364.

(5) Xavier, pp. 15-16, 12, 22- 23,29.

(6) Ibid., p. pp. 15-16, 22-23.

العربية الإسلامية التي أوجدها وعمل على تأسيسها المقاتلون المسلمون، والدليل على عدم اكتراثه بل تغافله عن بعض الحقائق المسألة المتعلقة بنظرته إلى شوارع المدن فقد اتهم فيها الإسلام بعدم استيعابه لحركة التمدن. ولو رجع إلى رواية الطبري والماوردي لوجد أوصافاً ومعايير قياسية دقيقة لا يجوز الإخلال بها، كانت تتبع وتطبّق عند تخطيط الشوارع الرئيسة والفرعية ثم الأقل تفرعاً[١] وهكذا في جميع المدن عند وضع مخطط بنائها. كما أنه نتيجة إلى تأثره وتقليده لآراء الآخرين فقد وقع في عدة تناقضات:- فهو بينما ينكر على الإسلام أي دور وفاعلية في حركة التمدن نراه يقول:

But the essential fact is that Islam has need of the city to realize its social and" religious ideals. The religion encourages the tamsir the founding of a town"[٢].

ويقول في مجال آخر:

By Virtue of its social constraints as well as spiritual demands Islam is a city relligion".[٣]

(٢) ويشتمل الإتجاه الثاني للدراسات الفرنسية عدداً من الدراسات التي تناولت بعض المدن العربية الإسلامية في حقب تاريخية مختلفة، مثال على ذلك دراسة لويس ماسنيون حول خطط الكوفة[٤]، ودراسته (خطط البصرة)[٥]، ودراسة شارل بلّا عن الجاحظ والبصرة[٦]، التي ركّز فيها على الوسط الإجتماعي والفكري والإقتصادي لمدينة البصرة ومدى تأثيره على تنمية مواهب الجاحظ الثقافية. والبروفسور كلود

---

(١) ينظر تاريخ الرسل والملوك م١ -٢٤٨٨-٢٤٨٩ الأحكام السلطانية (مصر) ص ١٩٦-١٩٧.

(2) Xavier p. 5.

(3) Ibid., p. 7.

(4) Massignon: Explication du plan de Kufa" in Opera Minora.

وقد ترجمها المصعبي إلى العربية بعنوان (_خطط الكوفة).

(5) Massignon: "Explication du paln de Basra" in The Wostostiche Abhandlungen R. Tschudi (1954) pp. 154-74.

(6) Ch. Pellat: Le Milieu Basrien et la formation de Gahiz,(Paris 1953).

وقد ترجمه الكيلاني إلى العربية (دمشق ١٩٦١).

كاهين في دراسته القيّمة عن مدينة بغداد خلال مدة الخلفاء العباسيين المتأخرين[١]. ويحتلّ المستشرق الفرنسي سوفاجيه مركز الصدارة في كتاباته عن بعض المدن السورية. ففي كتابه المشهور (حلب) تتبع أهمية هذه المدينة منذ أقدم الحقب التاريخية كالسلوقية والرومانية؛ وهو يقّسم أحوال المدينة في المدة الإسلامية على خمس مدد تاريخية: - حلب خلال مدة الخلافة، ثم خلال مدة الفوضى السياسية، ثم خلال مدة الدويلات التركية، ثم المماليك، ثم المدة العثمانية. وبالنسبة إلى سوفاجيه فإن التركيب الذاتي أو البنية الداخلية لمدينة حلب ليس إسلامياً إنما كان يونانيا ورومانيا والمتغير الوحيد هو المجتمع لاغير. فالرومان هم الذين وضعوا تخطيط الشارع Colonnaded Avenue والمعبد ومواضع الأسواق والشوارع الأخرى التي خطّطت على شكل متعامد. وكرّر هذه الآراء في دراسته الأخرى (مختصر تاريخ دمشق)[٢] ودراساته عن أنطاكيه من وجهة نظر جغرافية المدن[٣] ؛ وكذلك دراستهن (أنطاكيه أنموذج من نماذج المدن الإسلامية)[٤]. ودرس سوفاجيه في هذه الدراسة الأخيرة أنطاكية ومحلاتها الخمس والأربعين خلال المدة العثمانية، فقسّمها تقسيماً أثنولوجياً ودينياً نظير محلة اليونان ومحلة الأرثودوكس ومحلة الأرمن ومحلة الأغوات الأرستقراطيين الأتراك... الخ بغية أن يؤكد فكرة العزلة الإجتماعية التي عدها السمة الهامّة للمدينة الإسلامية. ولعله من المناسب القول بأن هناك - إلى جانب أعمال سوفاجيه - دراسة البروفسور اشتر E.Ashtor حول التمدن الإداري لسورية في العصور الوسطى[٥]. وتكمن أهمية االدراسة في أن مؤلفها ركّز على الأحوال الإجتماعية والتمدنية للمدينة السورية، وأشار إلى دور الحركات المعارضة الشعبية في المدن السورية ولاسيما ضد السلطة أو الحكّام الأجانب محاولاً تشبيهها بالفعاليات السياسية والثورات التي شهدتها بعض المدن الأوربية ضد اللوردات.

---

(1) C.Cahen: "Baghdad au temps de ses derniers califes" in Arabica (Ix/1962) pp. 289-302.

(2) Sauvaght: "Esquisse d'une histoire de la ville de Damas" in Revue de Etudes Islamique (VIII/1934) PP. 421-80.

(3) "Antioche, essai de geographic urbaine" in Bulletin d'Etudes Orientales (IV/1934) PP. 27-79.

(4) "Antioche, un type de cite" d'Islam" in Congres International de Geographie (III 1937) PP. 255-62.

(5) E.Ashtor: "L'administration urban en Syrie Medie'vale" in Rivista Degli Studi Orientali (1959) pp. 73-128.

أما فيما يتعلق بالدراسات الحضرية عن مدن شمال أفريقيا فهناك بحث ماسنيون القيّم والمسهب حول الحرف والصنائع الإسلامية في مراكش(1)، وقد اعتمد فيه كما ذكرنا آنفا على عدد من مؤلفات الصنائع والحرف المصنّفة حسب أحصائيات سنة ١٩٢٣م ككتاب (بيان الحرف والصنائع) و (كتاب إحصاء أرباب التجارة والحرف). وقام بترجمة بعض هذه الإحصائيات إلى اللغة الفرنسية. وهناك دراسة كيله J.Caille عن مدينة الرباط خلال مدة الأحتلال الفرنسي(2)، وكتاب تورينو Tourneau القيّم عن تاريخ مدينة فاس(3)، وهو في الأصل باللغة الفرنسية ثم ترجم إلى اللغة الإنجليزية. وقد أفدت منه كثيراً في موضوع مكانة مدينة فاس خلال العصور الإسلامية المبكرة. والمهم فيهذا التأليف أن مؤلفه يشير إلى وجود نقابات تجارية في مدينة فاس في العصر الوسيط(4). وهو يصف الدرجات التي خضع لها نظام النقابة، فقد كان لها رئيس يدعى أمين. فضلا عن ذلك فإن تورينو تناول ذكر صلاحية النقابة ودورها في حماية أعضائها. فضلا عن هذا هناك دراسة ديسبوا J.Despois عن مدينة القيروان(5). وفي الوقت نفسه فإن عدداً من الدراسات الفرنسية قد تناولت مدينة القاهرة والفسطاط مثل دراسة كليرجت Clergete عن القاهرة من وجهة نظر جغرافية المدن والتاريخ الإقتصادي(6)، ودراسة بوتي عن القصور والبيوت في مصر خلال المدة الإسلامية(7).

(٣) أما الإتجاه الثالث من الدراسات الفرنسية بشأن التمدن الإسلامي فيمثّله البروفسور كلود كاهين، ومن بين دراساته الكثيرة عدد تخصّص في التنظيمات الإجتماعية والحركات الشعبية التي تشكّلت في بعض المدن العربية الإسلامية بوصفها من الأسس الهامة جدا في موضوع المؤسسات التمدينة أو التي تعدّ من السمات التمدنية الأساس للمدينة. ومن الجدير ذكره فإن كاهين لا يتّفق مع نظرية ماسنيون

---

(1) Massignono: "Enquete sur les corparation" pp. 1-250.

(2) .Caille: "La ville de Rabat jusqu' au protecrorate Francais" in L'Institut des Hautes Etudes Marocaines (XLIV/1949).

(3) R. Le Tourneau: Fez, in the Age of the marinides (Trans by Besse Alberta Clement,(Oklahoma, 1961).

(4) Ibid., p. 95, 96-7, 97-8.

(5) J.Despois: "Kairoun" in Annales de Geographie (1930) pp. 157-77.

(6) M. Clerget: Le Caire, etude de geographie urbane et d'histoire econmique (1934).

(7) E..Pauty: Palais et mainsons d'epoque, musulmąne au Caire (Le Caire 1933).

بخصوص النقابات الحرفية لانه لا يرى في الحرف الموجودة في المدينة العربية الإسلامية نقابات كالنقابات الموجودة في المدن الأوربية خلال العصور الوسطى، فتلك الموجودة في المدن الإسلامية كانت عبارة عن مجرد أدوات بيد السلطة إذ تعزّز بها سيطرتها. وفي هذه المسألة، كما أشرنا سابقاً، يناقش ما أورده كلّ من ماسنيون ولوبيه Lopez فيما يتعلق الأمر بالدور الذي أدته النقابات الإسلامية في معارضتها للسلطة المركزية. والمهم أن كاهين حاول أن يتخذ موقفاً معتدلاً بالنسبة إلى مدة ظهور النقابة في التاريخ العربي الإسلامي، فهو لا يميل إلى وجودها خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي لكنه من الجانب الآخر يشير الى وجودها في مدة متأخرة أي المدة العثمانية. وعرض البروفسور كاهين في بحث آخر عنوانه (هل هناك تعاونيات حرفية في العالم الإسلامي الكلاسيكي، بضعة ملاحظات وتأملات)[(١)] رأياً آخر مفاده:- أنه من الخطأ أن نطلق على المدينة الإسلامية Islamic Cities والأحرى تسميتها بمدن دار الإسلام. وهنا ـ حسب اعتقادي ـ يهدف إلى تجريد المدينة الإسلامية من صفات المدنية للمدينة الإسلامية المستقلة، وذلك لأنه في مجال آخر يقول بأن الكثير من سمات ما تسمى بالمدينة الإسلامية ماهي في الواقع إلّا صفات وسمات المدينة البيزنطينية الوسيطة، أوصفات المدن الإيطالية قبل القرن الحادي عشر. ولكن كاهين على الرغم من تفنيده وجود نقابات حرفية في المدينة الإسلامية يشير في بحوث أخرى، بوضوح، إلى وجود حركات شعبية مستقلة وهو يشبهها بتلك الحركات التي شهدتها المدن الأوربية الوسيطة ضد حكّامها. ففي دراسته الممتازة الموسومة بـ (الحركات الشعبية والتمدن الذاتي أو المستقل في آسيا الإسلامية في العصر الوسيط)[(٢)] يتناول بإسهاب التكوينات والفعاليات التي أدّتها بعض الحركات الشعبية كالعيارين والفتوة والأحداث. ويذكر كيف شكّل أحداث سوريا منذ القرن الحادي عشر الميلادي قوة سياسية وتطوروا الى مؤسسة معترفاً بها رسمياً من قبل السلطة. فكان يرأسهم شخص يدعى رئيس المدينة ووظيفته وراثية بصورة عامة، كما أنه يشير الى منظمة الشباب الشجعّان في مصر في القرن العاشر ودورهم ضد الأرستقراطية في المجتمع المصري، ومنظمة الحرافيش التي ترتبط بمنظمة

---

(1) C.Cahen: "Ya-t-il eu des corparations professionnelles dans le monde musulman classique? Qulques et reflexions" in The Islamic City (ed.by Hourani and Stern, Oxford, 1970) p. 51-63.

(2) C.Cahen: "Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie musulman du moyen age" in Arabica, (V/1958) pp. 225-50, (VI/1959)PP. 25.56, 223-65,

العيارين[1]، ومنظمة الفتوة. وبالإضافة إلى دراسات المستشرق كاهين[2] هناك دراسة المستشرق اشتر Ashtor التي أشرت إليها آنفا وهي تركّز أيضاً على التنظيمات الإجتماعية ومدى علاقتها بالتمدن في المدن السورية.

الحديث عن مساهمات المستشرقين الفرنسيين، سواء أكان منهم المؤرخون أم الأثريون أم الجغرافيون وما يتعلق بالمدينة العربية الإسلامية لا يعني عدم مساهمة الباحثين أو المستشرقين الأوربيين الآخرين. فقد أسهم هؤلاء ببعض الدراسات التي تمتعت برصيد عال من الشهرة في حقل التمدن كدراسة كرونباوم Von Grunebaum (المدينة الإسلامية والمدينة الهيلينية)[3] التي ما زال يعتمد عليها ويشار اليها عند التطرّق إلى مدى تأثير المدينة الهيلينية على المدينة الإسلامية. ففي هذه الدراسة القصيرة يقارن كرونباوم بين المدن الأوربية القديمة والمدينة العربية الإسلامية ويخرج بعدد من الإستنتاجات المهمة منها:- تعدّ المدينة بالنسبة الى المسلمين المكان الذي تنجز فيه واجباتهم الدينية، وهي المكان الذي يبرز فيه تراثهم وموروثاتهم الإجتماعية، لذلك فإنها لا تشابه الـ Polis الهيلينية التي تعد وحدة سياسية مستلقة. فمن أجل أن يكون المرء مواطناً في المدينة الأوربية عليه أن يحصّل على موافقة وأن يدّون اسمه في سجل هذه المدينة أو تلك، وهذا لم يكن موجوداً في المدينة العربية الإسلامية[4]، طالما أن الأفراد المختلفين أصلاً وجنساً يمكنهم الأستقرار فيها واتخاذ المحلّات المخصّصة لهم، فأنتجت هذه العملية نقصاً أوبالأحرى عدم تماسك في الحياة المدينية وفي بنية المدينة وهذه تعدّ صفة غالبة على المدينة العربية الإسلامية. وما ينبغي ملاحظته أن كرونباوم، بتقصّد أو بعدمه، لا يطلق على المدينة الإسلامية كلمة City بل يشير إليها دائماً بكلمة Town، والكلمة إذا ما رجعنا إلى التفسير أو التصنيف الألماني للمدينة تكون أقل مرتبة من الـ Cityبالنسبة الى عدد السكّان أوالى نقص المؤسسات. أما الأستنتاج الآخر الذي توّصل إليه كرونباوم فيتركّز على أن المدينة الإسلامية لا تمثّل أنموذجاً (موّحداً) للحياة التمدنية كما هو الحال بالنسبة الى المدينة اليونانية

---

(1) Ibid, idem" Futwwa" in E.I(2).

(2) E.Ashtor: "L'administration urbain en Syrie" pp. 73-128.

(3) V. Granebaum: "The Muslim Town" pp. 361-70.

(4) Ibid.,p 369.

والرومانية[١] وهو يكرّر الآراء نفسها تقريباً في دراستين أخريين. الأولى باللغة الألمانية وموضوعها (المدينة الإسلامية)[٢] والثانية بالإنجليزية وموضوعها (تركيب أو بنية المدينة الإسلامية)[٣] وهما دراستان متشابهتان بشكل عام من حيث المحتوى والآراء التي يتضمنانها وهو يشير فيهما أيضاً إلى موضوع المدينة المخلوقة والمدينة الذاتية ويصنّف المدن المخلوقة الإسلامية إلى عدّة أصناف، ويصف طوبوغرافية المدينة مشيراً إلى تجمعات الأسواق. ومن المسائل الهامة التي أشار إليها مسألة النقابات، فهو حسبما يفهم من تصويره للحرف ووظائفها يميل إلى رأي ماسنيون. وبالفعل فإنه ذكر دراسته عن إحصائيات الحرف والصنائع في المغرب لسنة[٤] ١٩٢٣، كما أنه يرى بأن الإسلام دين مدنيّ في فلسفته[٥].

Reiligion of the towns people.

وهو بحاجة إلى المدينة[٦]. ومن الدراسات الألمانية الأخرى كتابيّ فايت Gaston Weit عن القاهرة وبغداد[٧]، وهما دراستان تقليديتان. وهناك أيضاً دراسة تشنر Taeschner عن العيارين والفتوة[٨]. وتشنر يخالف آراء كلود كاهين في هذه الموضوعات إذ إنه يشير بوضوح إلى أن جميع المدن الإسلامية تتّصف بوجود نقابات وأصناف[٩].

وإذا ما كان عدد الدراسات الألمانية عن المدن الإسلامية لا يقارن بعدد الدراسات

---

(1) Ibid.,p pp. 369-70.

(2) Von Gruneoaum: "Die Islamiche Stadt" in Saeulum (VI/1955) PP. 138-53.

(3) Von Grunebaum: "The Structure of the Moslim Town" pp. 141-158.

والمناسب ذكره أن كرونباوم قد أنتقل للعمل الى أمريكا في جامعة هارفرد وتجنّس بالجنسية الأمريكية

(4) Ibid.,p PP. 145-7,150.

(5) Ibid.,Pp. 142.

(6) Ibid.,p 143.

(7) Weit: Caire city of Art and commeree (Oklahoma 1964), idem Baghdad (Oklahoma, 1971).

(8) Taeschner, Futwwa: in E.I(2).

(9) Ibid.

الفرنسية فإن المساهمات الإنجليزية تعدّ أقل من ذلك بكثير. وربما يرجع السبب إلى أن حركة الإستشراق في فرنسا قد تركّزت ـ كما ذكرنا آنفا ـ على الجوانب الإجتماعية والفكرية، بينما توجّه اهتمام المستشرقين الألمان إلى تحقيق المخطوطات الإسلامية والكتابة عن التصوف والفلسفة والعقائد الإسلامية والتاريخ الإقتصادي والحضارة الإسلامية والتشيع. في حين إنصّب اهتمام الباحثين الإنجليز على التاريخ الإسلامي سياسياً ودينياً مع العناية الخاصة بالفرق الإسلامية. ومع كل ذلك فإنه من الغرابة القول بعدم وجود دراسات من المستشرقين والمؤرخين الإنجليز عن المدن في المناطق التي كانت خاضعة لسيطرتهم السياسية كما شاهدناه بالنسبة الى اهتمام الفرنسيين بتمدن شمال أفريقيا القديم والحديث. صحيح أن هناك اهتماما ملحوظاً من قبل المستشرقين البريطانيين بمدن إيران والمشرق الأسلامي نظير دراسة لوكهارت L.Lockhart الموسومة بـ (المدن الفارسية)(١) ودراسة فري R.Frye عن (بخارى)(٢)؛ وتحقيقه كتاب النرشخي عن بخارى أيضاً، وما ألفّه ماينورسكي Minorsky عن تاريخ (شروان ودربند)(٣)، ودراسة كلارك J.I CLARK عن (كرمنشاه) و (شيراز)(٤) ودراسة كوستيلو Costello عن (كاشان المدينة والإقليم)(٥) ودراسات أخرى(٦). لكننا لا نجد كتابات ترتبط بتاريخ المدينة العربية الإسلامية من وجهة نظر التمدن، ما عدا ما أشرت إليه آنفا من بحث البروفسور برنارد لويس حول النقابات الإسلامية تلك التي أبدى فيها عدداً من وجهات النظر المقتضبة عن المدينة العربية الإسلامية منها: - إن المدن الإسلامية في العصور الوسطى وقتية وقصيرة العمر، فهي تتمتع بأهمية تجارية وفكرية لقرن أو أكثر ثم سرعان ما تتدهور وتختفي، وكذلك رأيه عن خلو المدينة من أي مؤسسات مدينية Municipal Institutions، ومن أي وجود تمدني دائميّ ومستمر(٧). والبروفسور

---

(1) L.Lokhart, Persian Cities (London 1960), idem Famous Cities in Iran (Brentford, Middlesex, 1939).

(2) R.Frye (editor): The History of Bukhara of al-Narshakhi (Cambridge 1954), idem Bukharam, the Medival Achievement (Okahoma 1965).

(3) V.Minorsky: A History of Sharvan and Darband (Combridge 1958).

(4) J.I.Clarke and B.D. CLARK: Kermanshah, an Iranian Provincial City (Durham 1969).

(5) V.F. Costello: Kashan, a city and region of Iran (London 1976).

(٦) من أمثال أعمال بوزورث عن سجستان وخراسان وآربري عن شيراز.

(7) B.Lewis, Op, Cit, p. 20.

لويس في هذا الرأي والرأي الآخر الذي يقول فيه بأنه من الصعب أن نجد أي أثر لما يسمى Civic Spirit (المواطنة) في المدينة العربية الإسلامية يلتقي مع ما طرحه سوفاجيه من أفكار ومع ما تكرّر في كتاب بلانهول أكسفير .Xavier

ولهذا من الممكن تصنيف آرائه مع آراء المدرسة الفرنسية بتركيزها على المؤسسات الإدارية كأساس للتمييز بين المدن[١]. وإلى جانب دراسة برنارد لويس هناك دراسة جست A.R.Guest (تأسيس الفسطاط وخططها)[٢] ودراسة آشلي Ashley القديمة (المدينة في العصور الوسطى الأوربية)[٣]. وظلت الدراسات الإنجليزية عن المدن العربية الإسلامية منذ ثلاثينيات القرن العشرين حتى الستينيات منه متأخرة وغير متخصّصة إلى حدّ ما إذا ما قورنت بمساهمات المستشرقين والمؤرخين الفرنسيين. ويبدو أن المستشرقين البريطانيين لم يهتموا كثيرا بهذا الحقل من الدراسات لاختلاطه وتشابك مضامينه مع الدراسات الجغرافية للمدن أو ربما لعدم وجود متخصّصين في هذا الميدان. وبالفعل فإن هناك عدداً من الدراسات الإنجليزية عن جغرافية المدن العربية تناولت الإطار التاريخي لهذه المدن، وعرضت جملة آراء، الكثير منها مقلّد في اعتماده على آراء الباحثين الفرنسيين. فمثلاً هناك دراسة عن (الشرق الأوسط دراسة جغرافية[٤] من تأليف عدة باحثين تطرّقوا فيها إلى سمات المدينة العربية الإسلامية وخصائصها ومدى اختلافها عن المدينة الأوربية وقد كرّروا آراء جورج مارسيه[٥] وكرونباوم في هذا المجال.وهناك دراسة كوستيلو Costello في قسم الجغرافية في جامعة برستون وعنوانها (التمدن في الشرق الأوسط)[٦]. وهو في حديثه عن المدينة الإسلامية في العصر الوسيط يعتمد كلياً على آراء البروفسور كويتاين Goitein في دراسته (مجتمع ألبحر المتوسط، ويهود العالم العربي، الأسس

---

(1) Ibid.

(2) A.R Guest: "The foundation of Fustat and the Khitat of the Town" in JRAS (1907) PP. 49-83.

(3) W.J. Ashley: "The beginnings of town life" pp. 359-406.

(4) Peter Beaumont and others: The Middle East: A geographical Study (Britain 1976).

(5) Ibid., p. 192,169-7,197-8,199.

(6) V.F Costello: Urbanization in the Middle East (Cambridge 1977).

الإقتصادية) ودراسته (القاهرة، المدينة الإسلامية حسبما تصوره وثائق الجنيزة)[١]. كذلك يعتمد على دراسة لابيدوس (المدن الإسلامية في العصور الوسطى المتأخرة)[٢]، وكلاهما من المتخصّصين الأمريكان في حقل التمدن.

ونلحظ أن تحولاً قد طرأ على اهتمام المستشرقين والمؤرخين البريطانيين نحو حقل التمدن الإسلامي، ففي حوالي ١٩٦٥ عقدت جامعة أكسفورد أول ندوة من نوعها حتى هذه المدة، موضوعها المدينة الإسلامية The Islamic City[٣]. وقد جمع الأوراق(البحوث) التي قدّمت إلى هذه الندوة وحقّقها كل من البروفسور ألبرت حوراني A.H.Hourani والبروفسور شتيرن S.M.Stern وطبعت في كتاب بالتعاون مع معهد الدراسات الشرق أوسطية في جامعة بنسلفانيا في أمريكا سنة ١٩٧٠. والأوراق التي قدّمت إلى هذه الندوة تتعلق بالمدينة الإسلامية من وجوه متعددة، فهناك ورقتان عن بغداد، الأولى للدكتور صالح أحمد العلي[٤] والثانية كتبها المستشرق المعني بدراسة مدينة بغداد لاسنر Lassner[٥]، وورقة أخرى للبروفسورشتيرن من بريطانيا، وثالثة من تأليف المستشرق الأمريكي سكانلون Scanlon حول الخدمات العامة المدينية والحضرية في المدن الإسلامية الوسيطة[٦]، وورقة المستشرق الأمريكي لابيدوس حول (المجتمع الإسلامي الحضري التمدني في سوريا المملوكية)[٧]. وورقة

---

(1) Ibid., p. 12-14, S.D. Goitein: A Maditerranean Socitry, the community of the Arab World, I. Economic Foundation (Cambridge 1967, idem "Cairo: An Islamic city in the light of the Geniza Documents" in Middle Eastern Cities ed. By I.M Lapidus (Berkeley and Los Angeles 1969).

(2) Costello, pp. 14-16, I.M Lapidus: Muslim Cities in the Later Middle Ages (Cambridge, Mass, 1967).

(3) A.H Hourani and S.M Stern (eds.) The Islamic City (Oxford 1970).

(4) S.el- Ali: "The foundation of Baghdad" in The Islamic City pp. 87-101.

(5) J.Lassner: "The caliph's Personal domain: The City olan of Baghdad Re-examined" in The Islamic City, pp. 103-118.

(6) George, T.Scanlon: "Housing and Sanitation: Some aspects of medival Islamic Public Service" in The Islamic City pp. 179-94.

(7) Ira M. Lapidus: "Muslim Urban Society in Mamluk Syria" in The Islamic City, pp. 195-205.

روجرز Rogers عن سامراء[1] وورقة المستشرق الفرنسي كلود كاهين (النقابات الحرفية في العالم الإسلامي الكلاسيكي)[2] وورقة المستشرق الفرنسي جين أوبين Aubin (عناصر دراسة التجمعات المدينية أو الحضرية في إيران في العصور الوسطى)[3] وورقة جارنيه J.Garner (ملاحظة حول المدن الصينية خلال المدة الزاهرة في الإسلام)[4] وورقة ايليسيف N.Elisseeff (دمشق ونظرية سوفاجيه)[5] ومن مفارقات الندوة أنها تضمنت ثلاثة مناهج متعارضة إلى حدّ ما بالنسبة إلى تفسير المدينة وفلسفتها وسماتها. فالمستشرقون الفرنسيون ولا سيما كلود كاهين، على الرغم من معارضته لأفكار ماسينيون، فإنه من الجهة الأخرى يؤيد وجود مؤسسات مدينية في المدن الإسلامية كالنقابات والحركات الشعبية المعارضة للسلطة في مدة متأخرة أي منذ القرن الثالث عشر الميلادي.

بينما وقف المستشرقون البريطانيون موقف المعارضْ تماما للإتجاه الداعي إلى وجود مؤسسات في تلك المدن. في الوقت الذي ركّز فيه المستشرقون الأمريكان على النظرية السائدة في كتاباتهم والمتمثلة بمكانة تلك المدن من حركة التمدن الحضري. والأهم من هذا فقد كان من المتوقع أن يحتّل المستشرقون الإنجليز مكان الصدارة في هذه الندوة سواء من ناحية العدد أم العدّة؛ لكن حقيقة الأمر أظهر خلاف ذلك فالمشاركون كانوا اثنين فقط وهما الروفسور حوراني والبروفسور شتيرن، أو بالأحرى واحد فقط وهو شيترن؛ وذلك لأن البروفسور حوراني لم يقدّم ورقة مستقلة إنما قدّم مقدّمة مسهبة تشتمل على خلاصة شاملة للأوراق المقدمة وللندوة أيضا. وإن كليهما غير متخصّص في حقل الدراسات الحضرية ودراسات المدن والتمدن الإسلامي فلم يكتب أي منهما عن المدن الإسلامية سابقاً. وواقعا فالمشهور عن ألبرت حوراني بأنه

---

(1) J.M Rogers: "Samarra: A Study in Medival Town - Planning" in the Islamic City, pp. 119-155.

(2) C.Cahen" Ya-t-il au des corporations professionelles" in The IslamicCity, pp. 51-63.

(3) Jean Aubin: "Elements pour L'Etude de agglomeration urbaines dans L'Iran Medieval" pp. 65-75.

(4) J.Garnet: "Note sur les villes chinoisses au moment de L'apogee Islamique.

(5) N.Elisseeff: "Damas a la lumierd des theories de Jean Sauvadet" in the Islamic City, pp. 157-166.

ألف في موضوعات متعددة من التاريخ العربي الحديث[1]، في الوقت الذي تركّزت فيه كتابات شتيرن على الدولة الفاطمية والاسماعيلية. ومع كل هذا فإنهما مالا بشدّة إلى نظرية المؤسسات، وفي بعض الأحيان بشكل متناقض. فكان جوهر وخلاصة ورقة شتيرن (بنية أو نظام المدينة الإسلامية)[2] يدور حول مناقشته بل ومعارضته لكل ما أورده ماسنيون من أفكار. فهو يقول عن موضوع النقابة وعلاقتها بالقرامطة ما نصّه:

"The theory though it sounds most attractive, has in fact not a shred of evidence to support it"[3].

والحقيقة أن لويس ماسنيون ـ خلافاً لما يزعمه شتيرن ـ قد ذكر عدداً من الإستشهادات المؤيدة، لرأيه؛ وأنها على الرغم من نقصها وقلّتها ما زالت أقوى من ردّ البروفسورشتيرن الذي اكتفى بالتعليق على ذلك الرأي بقوله: -- إنها عبارات منمّقة وينقصها الدليل. أما عن الأدلّة الأخرى التي ذكرها ماسنيون نظير رسالة أخوان الصفا بشأن العمل، ووجود نقابة للمعلمين في الأزهر ومشابهة نقابات القرن الثالث عشر الميلادي في أناضوليا مع نظام الدرجات عند القرامطة؛ فجميعها حسب رأي شتيرن خليط من كلام كاذب[4].

"Pelle- mell collection of false logic"

ب

٢- وبينما يشير ماسنيون إلى وجود مؤسسة (الجامعة) في المدينة الإسلامية كجامعة الأزهر نجد شتيرن يعارضه في هذا الرأي أيضا قائلا: بأن المدة التاريخية من القرن الحادي عشر الميلادي فصاعداً قد شهدت ظهور سمة المدارس. فلو كان للحضارة الإسلامية اتجاه نحو الـ Corporations (النقابات) لكان الوقت ملائماً لظهور جامعة كالجامعة في المدينة اللاتينية الغربية، وأنه من السخف، حسب رأي شتيرن، أن نجد محاولات في بعض المساهمات الغربية تشير إلى أثر وفضل المدرسة الإسلامية على

---

(1) See A.H. Hourani: Great Britain and the Arab World (London 1945). Idem, Arabic thought in the liberal Age 1978-1939 (London 1962), idem Minorities on the Arab World (New York 1947), etc.

(2) S.M Stern " The Constitution of the Islamic City" pp. 25-50.

(3) Ibid., p. 40.

(4) Ibid,.p.40.

الجامعات الأوربية[1].

٣- اعتمد شتيرن في الوقت نفسه على النتائج التي توصل إليها سوفاجيه التي سبق عرضها تلك التي تفيد بأن خطط المدينة الإسلامية في حقيقتها مأخوذة ومقلّدة للمدن اليونانية القديمة، أمثال الشوارع، والسوق المركزية، فيقول مانصّه:-

"It is evident that on the whole urban life in the Muslim Cities owed a great deal to the traditions of Antiquity"[2]

٤- ويرى شتيرن أن المدينة العربية الإسلامية تتّسم بفقدانها لأي وحدة أوتماسك في بنيتها وتركيبها الداخلي وكذلك بخلوّها من المؤسسات المدينية.

Corporate municipal institution

والبروفسور شتيرن في هذه المسألة لا يذكر إلّا الآراء المؤيدة لرأيه بينما في الوقت نفسه يتجاهل تلك الآراء والإستنتاجات المعارضة. ومثال على ذلك موقفه من المعلومات التي أوردها الحسيني في كتابه (الإدارة العربية Arab Administration).

فالحسيني يشير إلى أن المدن الإسلامية كانت تدار من قبل مجلس يسمى (ديوان الشورى) ويتصدره رئيس يدعى (الصدر). وإن كلّ مدينة تدير شؤونها بنفسها وتدفع ريعاً سنوياً للدولة السلطة المركزية، هناك إمارات كانت شبه مستقلة تشابه الـ Free Cities (المدن الحرة) في أوربا، فضلا عن هناك نقابة للتجّار[3]. ويكتفي شتيرن بالتعقيب على جميع هذه الآراء بالقول: ((إنه كلام خال من أي دليل، وصورة كاذبة ومزيفة)) ويقول أيضاً: ((الكتاب سطحي ولم أشر إليه إطلاقاً))[4] ثم يعقّب على ذلك مكرّرا الآراء السابقة:- المدينة الإسلامية خالية من أي مؤسسات؛ لأن المجتمع الإسلامي لم يرث أياً من المؤسسات المدينية والحضرية من الحضارات القديمة ـ ويقصد بها اليونانية والرومانية ـ كما أن الإسلام لم يطوّر أياً من هذه المؤسسات[5]

---

(1) Ibid., p. 48.

(2) Ibid., p. 29-30.

(3) S.A.Q. Husaini: Arab admimistration (Madras 1949) pp. 217-18.

(4) Ster4n, op, cit., p. 31.

(5) Ibid., p. 31.

ذاتياً فالحضارة الإسلامية في رأيه كان باستطاعتها السيطرة على ما كان موجوداً قبل الفتح الإسلامي من مؤسسات مدينية ـ حضرية قديمة ثم تطويرها؛ غير أنها لم تقم بهذه العملية وذلك يرجع الى انتهاء حركة وفعالية المؤسسات المدينية القديمة، فلم يبق هناك شيء يمكن لهذه الحضارة أن تستعيره[١].

٥- أما فيما يتعلق بالحركات الشعبية التي شهدتها بعض المدن الإسلامية واستقلاليتها عن نفوذ السلطة المركزية التي سبق ذكرها في دراسة البروفسور أشتر Aster فإنها حسب رأي ستيرن، ظاهرة عرضية لم تأت بالنتائج نفسها التي جاءت بها الحركات الأخرى في المدن الأوربية. وهو يعلّق في هذا الصدد على ما ذكره ابن خلدون في رواية مفادها أن محمد بن عبّاد كانت له الرياسة على المدينة، وأنه قد تولّى رأس المشيخة وكان يلقّب بعميد أو رئيس المدينة، وأنه قد اقتسم الحكم مع عدد من أعيّان المدينة[٢]. والبروفسور شتيرن يرى هذا ـ كما سبق ـ حدثاً عرضياً وقتياً أيضا.

٦- لم يكتف شتيرن بذلك كلّه بل تعرّض إلى المدن التي أسّسها المقاتلون المسلمون خلال عمليات الفتوح الأمصار التي لم تكن موجودة قبل الفتوحات ويعتمد في هذا المجال على ماكس ويبر Max Weber في كتابه (المدينة) إذ يقول إن المدينة الإسلامية خالية من المؤسسات، ويرجع سبب ذلك إلى التقاليد[٣] العربية البدوية الصارمة.

من جهة ثانية فإن حوراني عرض أيضاً في مقدمته أفكاراً تتلاءم وما طرحه شتيرن ومؤيدو نظرية المؤسسات. فهو قد اعتمد على الخصائص الخمس للمدينة التي أشار إليها ماكس ويبر Weber وحاول أن يجد ما يقابلها في المدينة الإسلامية فقال بأن اثنين من هذه الخصائص الخمس فقط وهما المحكمة، واستقلالية المدينة لا تتوافر في المدينة الإسلامية. لذا فإنها ليست مدينة ـ حسب رأي حوراني ـ بالمعنى الكامل لهذه

---

(1) Ibid., p. 30.

(2) Ibid., p.30.

(3) Stern, p. 80.

ينظر ابن خلدون: تاريخ ج٢ ص٢٠٨.

الكلمة[١]. أما مدى تأثر المدينة الإسلامية بالأوربية، فإن البروفسور حوراني يعتمد على رأي سوفاجيه الداعي إلى أن المدينة الإسلامية هي مدينة يونانية رومانية لاغير، وإن المسلمين الفاتحين قد اتخذوا مستقراتهم في المدن المفتوحة في منطقة الاكورا Agora والشارع المركزي والمعبد أو الكنيسة، وجميع هذه الوحدات الطوبوغرافية كانت هي قلب المدينة اليونانية. ففي هذا المكان حلّ المسجد الجامع محلّ المعبد أو الكنيسة، وحلّت الأسواق الرئيسة محل الشارع المركزي والاكورا[٢]. وعلى الرغم من ذلك فإن موقف حوراني نتيجة إلى عرضه العام كان أقلّ حدّة من موقف شتيرن تجاه المدينة الإسلامية والحضارة الإسلامية، إذ نراه يميل إلى رأي وليم مارسيه وجورج مارسيه القاضي بأن هناك شخصية مشتركة عامة[٣] تجمع بين المدن الإسلامية. ويميل إلى رأي جين أوبين Aubin في بحثه المشار إليه سابقاً الذي يفيد بأن انعدام المؤسسات المدينية ـ الحضرية في المدينة الإسلامية لا يعني انعدام وجود التمدن في الإسلام، فالمدينة الإسلامية تشابه المدن الآسيوية الأخرى في هذا النقص أي عدم وجود مؤسسات.كما أنه يشير إلى ما ذكره جارنيه Gernet حول المدينة الصينية إذ قال بأنه لم يكن في الصين، وحتى مدة النمو التجاري والبرجوازي خلال مدة السونغ Song[*] أي تمدن إطلاقاً. والمدينة هناك كانت مجرد قطعة من الأرض يكتظّ فيها الناس، فلم يكن لها سلطة أو إدارة خاصّة، ولم تكن لها وظيفة متميزة. ويعلّق حوراني على هذا بأن المدينة الإسلامية ليست كالمدينة الصينية تماما، فإنها كانت فعّالة[٤].

فما تقدم ذكره من عرض لدراسة شتيرن وآراء حوراني تدفعنا الى القول مرة أخرى بأن المستشرقين الإنجليز لم يقدّموا مساهمات عميقة في حقل دراسات المدن الإسلامية بصورة خاصة، والأحرى عدم وجود متخصّصين في هذه الدراسات؛

---

(1) Hurani, A.H. "The Islamic City in the light of recent research" in the Islamic City, pp. 13-14.

(2) Hourani, p. 22.

(3) Ibid., p. 12.

(*) وتمتد فترة السونغ خلال ٩٦٠-١٢٧٠م.

(4) See J. Aubin: "Element pour L'Eutde" Op.Cit, p. 66-67 J. Gernet: "Note sur les villes" op.cit., pp. 77-8, 79-80. 84.

بخلاف ما قدّمه الفرنسيون، فشتيرن لم يوفق الى إظهار رأي أو تفسير مستقّل بهذا الشأن بل كان هو و البروفسور حوراني كثيراً ما يذكران أسماء وإسهامات المستشرقين الفرنسيين ويعتمدان دون تجديد على آرائهم وكتاباتهم. فضلا عن أنهما كانا يميلان إلى التفسير الذي يركّز على المؤسسات وعبّرا عن موقفهما بشأن تلك المسألة بوضوح. ولكن قبل أن نغادر المدرسة البريطانية لا مندوحة من الإشارة إلى كتاب المؤرخ الإنجليزي المشهور توينبي الذي أصدره سنة ۱۹۷۰ والموسوم بـ (المدينة في حركة)؛ وتناول البروفسور توينبي في هذا الكتاب أنواع المدن قبل عصر المكننة كالمدن التقليدية ومدن الدول City States والمدن العواصم، والمدن الدينية، ومن ثمّ المدن الميكانيكية. وهو على الرغم من أنه لا يتحدّث عن المدينة الإسلامية فيما يتعلق بنظرية التمدن وإظهار خصائصها ومقوّماتها لكنه يفسّر وبشكل تاريخي فشل الدولة العربية الإسلامية في العصور الوسطى باتخاذ عاصمة ملائمة أو فشلها باتخاذ مدن أدّت دور عواصم. فاتخاذهم الشام أو دمشق عاصمة أدّى الى فشلهم في السيطرة على خراسا والمشرق وذلك يرجع الى البعد الجغرافي. وأيضا عندما اتخذوا بغداد عاصمة لهم فشلوا أيضاً في تحقيق السيطرة على شمال أفريقيا وأسبانيا. لذلك فهو يصل إلى نتيجة مفادها :- لو أن العرب كانوا قد اتخذوا سلسلة من العواصم وفي مواضع المدن القديمة من أمثال طيسفون وأنطاكية والاسكندرية لحقّقوا نجاحات أكثر بكثير في السيطرة على جناحي الإمبراطورية الشرقي والغربي[١]. وهو أيضاً في هذا الكتاب يذكر بعض المدن الإسلامية التي اشتهرت نتيجة للعامل الديني[٢].

وحدث التطوّر الهام والملحوظ في دراسة المدن عامة والإسلامية بضمنها ومن شتى النواحي في أواخر الستينيات والسبعينيات في الولايات المتحدة الأمريكية؛ فهناك مكتبة غنيّة جداً بالكتب والدراسات حول المدينة الأمريكية بالدرجة الأولى والمدن الأوربية ثانياً. كذلك فإن الجامعات الأمريكية أولت وتولي اهتماما متزايداً بدراسات التمدن. فكان نصيب المدينة العربية الإسلامية من جرّاء هذا التطور أن حظيت باهتمام غير قليل في دراساتهم. ومما يلفت النظر أنه بينما ركّز المستشرقون الفرنسيون على المدينة الإسلامية والأوربية والوسيطة من وجهة نظر تاريخية، فإن المستشرقين والمخصّصين الأمريكان ولاسيما أولئك المعنيين بأمور التمدن عامة

---

(1) Toynbee: The City on the Move, p. 128, 129, 130.

(2) Ibid,, p. 153, 158, 160.

والتمدن الحضري خاصة قد تركّزت اهتماماتهم على وضع المدينة الحديثة ولاسيما المدينة الأمريكية. صحيح أن لويس ممفورد في كتابه (المدينة في التاريخ) يشير إلى أنه من الضروري حينما نفكر بوضع أسس جديدة لحياة تمدنية معاصرة ومستقبلية لابدّمن تفهّم الطبيعة التاريخية للمدينة وذلك من أجلا لتمييز بين وظائفها الأصلية. وبعكس ذلك سوف لا نملك الحافز الدافع لأتخاذ خطوة جريئة كافية في المستقبل[1]. إن هذا القول صحيح من الوجهة النظرية، وعملياً فإن أتجاهات الدراسات التمدنية الأمريكية لم تشاطر ذلك المسلك وفاعليته لأن اغلبها لا تعطي إلا اهتماما قليلاً بالشأن التاريخي لهذه المدينة أو تلك. وقد يعزى سبب ذلك إلى فلسفة الباحثين الأمريكان بخصوص المدينة ونشأتها، إذ المعروف أن المدينة الفرنسية أو الأوربية بصورة عامة ومدن المنطقة الإسلامية ولاسيما بالنسبة الى المدن الذاتية تتمتع بأصالة تاريخية، وهي تمتلك تاريخاً وإرثا قد يمتد إلى مئات أو آلاف السنين. وهو تاريخ عريق في التمدن يزوّد المؤرخ الأوربي والشرقي بمادة تاريخية غنيّة عن واقع تُلك المدن في الجوانب الحضرية. بينما نجد المدينة الأمريكية فقيرة تاريخياً فهي مدن حديثة لا تمتلك مثل تلك العراقة والأصالة التاريخية وبذلك فليس هناك من دافع يحثّ المختص بالمدن أو التمدن الأمريكي على البحث في غور تاريخ المدن وإظهار موقعها من التقدم التمدني والحضري. وبالفعل فإن ما ذكره ماكس ويبر عن ردود فعل الباحث الأمريكي تجاه الدراسات الأوربية للمدن صحيح، فهو يعدها مجرد مدن قديمة، وأنه نادراً ما يراها ملائمة للمشكلة التي تجابهه في الوقت الحاضر[2]. فالباحث الأمريكي في حقل المدن يوجّه أهمية متزايده للمدينة الأمريكية الحديثة وما تواجهه من مشاكل معقدة بعضها يتّصل بتزاحم السكّان وتزايد الهجرة وبعضها يتعلق بتشويش تخطيطها ونقص أو تزايد عوامل العمران تبعاً لميزانيتها المالية، والبعض الثالث يتّصل بحياتها الإقتصادية، وبمشاكله الإجتماعية كالبطالة والفقر، ومشاكل أخرى تتعلق بتزاحم النقل والمواصلات وفساد الجو والعزلة الإجتماعية للعوائل

(1) L.Mumford: The City in History, p.3.

(2) Max-Weber: The City, p. 46.

عن هذا ينظر مثلاً التقرير الصحفي الذي نشرته صحيفة تلهاسي الأمريكية باللغة الإنجليزية بعنوان (المدن أماكن جميلة للزيارة ولكن...؟) وفيه يوضّح الصحفي المشاكل التي تعاني منها المدينة الأمريكية المعاصرة.

والأفراد على حدّ سواء. وقد دفعت هذه المؤثرات وغيرها الباحث الأمريكي إلى أن يشخّص هذه العلل ويحاول الوصول إلى حلول نظرية على الأقل؛ كذلك فإن هذه المؤثرات قد أدّت إلى توجيه مفهومه وفلسفته في حقل دراسة التمدن بصورة عامة، كما نلاحظ ذلك في دراسته للمدينة العربية الإسلامية. فالعلماء الأمريكانبصورة عامة لم يقفوا كثيرا على عنصر المؤسسات وفيما إذا كانت متوافّرة في المدينة الإسلامية أو هل أنها تمتلك هذه المؤسسات المدينية أم لا؟ بقدر ما اهتموا بوصفها من وجهة نظر التمدن الحضري ومدى علاقتها بالقرية. وكيف تمكّن المسلمون آنذاك من التغلب على مشاكل الهجرة مثلا، أو مشكلة توصيل المياه الصالحة للشرب، أو النسبة في المحافظة على النظافة، أو القدر الذي أفلحّت فيه في توفير الخدمات المدينية، أو مستوى تقدّم البناء والعمران ونوعه. أو تخطيط الشوارع وهيئتها ونظام تفرعها، أووضع المدينة الإقتصادي موازنة بما تتمتع به من ميزانية، أو وضعها الثقافي، أو أحوالها الإجتماعية.

فضلاً عن ذلك، هناك مسألتان ينبغي الإشارة إليهما في الوقت الحاضر قبل الخوض في وصف مساهمات الباحثين والعلماء الأمريكان :-

المسألة الأولى هي: بينما كان المؤرخون كما ذكر آنفا يحتلّون مركز الصدارة في دراسات المدن الإسلامية خلال العصور الوسطى والحديثة سواء أكان ذلك في فرنسا أم أوربا بدرجة أقل، نجد أن الباحثين الإجتماعيين وعلماء الإجتماع الحضري هم الذين أدّوا ويؤدون دوراً أساسياً في دراسة المدن الحديثة في المنطقة العربية والإسلامية[١]. ففتحوا بذلك مجالات جديدة في دراسة المدن عامة والمدن الإسلامية في العصر الوسيط أيضاً. لكن هذا لا يعني اختفاء دور المؤرخين في هذا المجال، وربّ سائل يتساءل فيما إذا أحدث هذا التحوّل في الكتابة والبحث أي نتائج حريّة بالملاحظة!؟ والجواب عن هذا إلى درجة ما بالإيجاب. فالإجتماعيون كما ترى

---

(١) لزيادة الإطّلاع حول ما كتبه الأجتماعيون ينظر البيبليوغرافيا في كتاب:

Comparative Urban Research: The admimistration and politics of cities. Ed.by Rebert T. Donald (USA 1969) PP. 325-5.

فضلا عن ذلك الأوراق التي قدّمت إلى الندوة التي احتواها الكتاب التالي:

The Study of Urbanization. Ed. By Philip M.Hauser and Leo F.Schnore (USA 1966).

البروفسورة شيرلي Shirley قد انقسموا حول طبيعة مهمتهم في حقل المدينة على أولئك الذين وجدوا في المدينة أنها المكان الدائم ذات الوجود أو الماهية المحدّدة، وعلى آخرين نظروا إليها وكأنها مرحلة أولى في حركة التطوّر التمدني والحضري(١). بالإضافة إلى هذا فالإجتماعيون وعلماء الإجتماع الآخرين قد انقسموا أيضاً في تفسيراتهم على مدارس تبعاً للعامل المؤثر أو لمجموعة العوامل المؤثرة والضاغطة في تكوين المدينة. فمنهم من مال إلى أثر العامل الإقتصادي والإجتماعي، وآخرون مالوا إلى أثر عناصر المحيط والبيئة Ecology وبضمنه المحيط والسكّان، وجماعة ثالثة ركّزت على الظروف والأحوال البيئية Environments ورابعة على ركّزت على العامل التكنولوجي، وفئة خامسة شدّدت على فضائل المدينة وقيّمها Values وأثرها في البنية الإجتماعية(٢). إلا أن من بين أهم نتائج توجّه علماء الإجتماع نحو دراسة المدن العربية الإسلامية، حسبما يتضّح آنفا، وقوعهم في عدد من التناقضات نظراً لعدم صلابة خلفيتهم التاريخية، فتوصلوا إلى عدد من العموميات الناتجة من حكم معاصرة اختصاصهم، وكذلك من تعسفهم في فرض التفسيرات التي تميل إلى عامل واحد دون الآخر.

أما المسألة الثانية فهي الرقعة الجغرافية التي أثارت اهتمامات الباحثين والمستشرقين الأمريكان بالنسبة للمدن العربية والإسلامية. فمن الغرابة أن نجدها متمحورة في منطقة شمال أفريقيا بصورة عامة وفي مصر خاصة إذ احتلت هذا التحديد الجغرافي مكانة ملحوظة في دراساتهم واستشهاداتهم، ثم إلى درجة قليلة جداً أولوا عناية بالعراق. والإتجاه صوب التمدن في شمال أفريقيا كان ـ كما لاحظناه هو الصفة السائدة لاهتمامات الباحثين والمستشرقين الفرنسيين ـ حسبما يبدو من أجل تحقيق هدف أو مجموعة أهداف. فالباحثون الأمريكان إضافة إلى مساهماتهم في دراسة التمدن في شمال أفريقيا خلال التاريخ الحديث، اعتمدوا على بعض الدراسات الفرنسية فترجموا عدداً منها نظير دراسة جوليان C.A.Julian حول تاريخ شمال أفريقيا(٣)، ودراسة تورينو Le Tourneau حول مدينة فاس، ودراسة لومبارد Lombard

---

(1) Shirley B.Laska: "The role of the city in Modern society" in Human Mosaic Vol. 3 No 2 (1969) p. 194.

(2) See Gideon Sjoberg: "Theory and Research in urban sociology. pp. 165-72.

(3) C.A.Julien: History of North Africa (New York 1970).

حول عصر الإسلام الذهبي إذ يتضمن حديثاً طويلاً عن التمدن في شمال أفريقيا.

بالإمكان تقسيم الدراسات الأمريكية فيما يتعلق بالمدن الإسلامية على قسمين:

١- الدراسات التي تناولت بصورة رئيسة المدينة ككل من حيث أهميتها كوحدة حضارية من النواحي الإجتماعية والإقتصادية والتمدنية ـ الحضرية.

٢- الدراسات التي تخصصت بدراسة مدينة واحدة من المدن العربية الإسلامية دون غيرها.

وقد مثل الإتجاه الأول بصورة عامة علماء الإجتماع، ومنهم بيرت هوسلتز Bert F.Hoselitz في دراسته (دور المدن في النمو ـ التنمية ـ الإقتصادي للبلدان النامية)[١]. ومن الآراء التي خرج بها البروفسور هوسلتز هوسلتز هي: أن الوظيفة الإقتصادية لمدن العصور الوسطى وفعالية الدور الذي أدته قد أنتجا تركيباً أو بنية (اجتماعية) بسيطة بخلاف المدن المعاصرة لهذه البلدان النامية. فالمدن المعاصرة تتسم بتشابك المؤسسات لذلك أنتجت تطوراً اجتماعياً معقداً)[٢]. ومن الممكن القول بأن آراء بيرت هوسلتز قد تأثرت كثيراً بالآراء التي سبق أن طرحها المستشرق الفرنسي بيرين Pirenne بالنسبة لعلاقة المدينة بالظروف التجارية؛ وأنه في الواقع ردّد رأي بيرين من صفحة (١٩٨ إلى ٢٠٠ في كتاب بيرين) المتعلق بتقسيم المدن الأوربية في العصور الوسطى على مدن لها وظيفة سياسية، وأخرى ذات وظيفة إقتصادية. والأهم من ذلك فإن هوسلتز كرّر أيضاً رأي أو كما يطلق عليها البعض نظرية بيرين عن دور الإسلام أو الفتح الإسلامي في تدمير التمدن الأوربي وتدمير المدينة الأوربية[٣]. وضمن هذا الخط تأتي دراسات كيدون Gideon الإجتماعي، وأهمها دراسته (المدينة قبل دور التصنيع) والأخرى (نظرية أوبحث علم الإجتماع التمدني ـ الحضري). وكيدون واحد من ممثليّ مدرس شيكاغو لعلم الإجتماع الحضري التي ركّزت على العامل الإقتصادي ـ الميكانيكي والإجتماعي وموقع المدينة من هذا التطوّر. ومع أنه لا يفرد

---

(1) Bert F.Hoselitz: "The role of cities in the economic growth of underdeveloped countries" in the J. of Political Economy (LXI/1953) No, 1, pp. 195-208.

(2) Ibid., pp. 205-6.

(3) Ibid., p. 198.

فصلاً عن المدينة العربية الإسلامية من بين فصول كتابه (المدينة قبل التصنيع) لكنه يتحدث عن المدينة بصورة عامة من وجوهها الإجتماعية والتخطيطية والإقتصادية والدينية والسياسية والثقافية ويشير أحياناً إلى مدن المنطقة العربية. فهو يشير مثلاً إلى دور الشرق الأوسط في حركة التمدن فيذكر قائلا :- كان أكثر منذ المدة المسيحية إلى درجة ما متمدنا. وعندما يصل إلى المدة الإسلامية يقول ما ترجمة نصّه (وفي الحديث عن سعة العملية التمدنية لابدّ من أن ننتظر إلى ما يحدّثه التفجر الإسلامي:

'For truly extensive city- building throughout the Middle East we must await the explosion of Islam'[1].

فالعرب المسلمون خلال مدة قصير سادوا منطقة واسعة محطمين بذلك الإمبراطوريات القديمة ومشيّدين بدلاً عنها رخاء متمثلاً بظهور المدن الجديدة[2]. إن مدناً مثل مكّة والمدينة وبغداد[*] ودمشق كانت في بداية أمرها مدناً صغيرة، غير أنها شهدت تحوّلاً جذرياً خلال المدة الإسلامية بعد أن اضمحل دور المدن الرومانية والفارسية كسلوقية وبالميرا وبترا وقيصرية Caesaria وطيسفون وسوسة[3]. ولذلك فإن أغلب مدن الشرق الأوسط يرجع الفضل في بدايتها التمدنية وتطوّرها إلى الإسلام[4]. وهذا اعتراف صريح من جانب كيدون بدور الإسلام في نشوء المدن وازدهارها.

ويعدّ البروفسور سجوبيرججيدون من المؤيدين لنظرية أثر العامل السياسي في نهوض المدينة ونموها حتى بالنسبة إلى تلك المدن التي وصفت بأنها مدن تجارية، إذ ليس باستطاعة المدن ان تزدهر وتنتعش ـ كما يقول جيدون ـ دون دعم مباشر أو غير مباشر من نظام سياسي قوي. فانتعاش مدن غربي أوربا بعد القرن التاسع الميلادي إنما

(1) Gideon, Sjoberg: The Pre-indutrial City, p. 55.

(2) Ibid., p56.

(*) الإشارة إلى بغداد باعتبارها مدينة موجودة قبل الإسلام غير صحيحة، مع العلم بأن هناك قرية صغيرة غير مهمة كانت تسمى بغداذ وأن الموضع التي اتخذت فيه بغداد زمن المنصور كذلك كان موجودا لكنه كان قرية زراعية.

(3) Gideon, op.cit.,p. 56.

(4) Ibid.,

كان في حقيقته نتيجة مباشرة إلى الدعم الذي نالته من الإمبراطورية البيزنطية والعربية الإسلامية[1].

وفي هذا المجال يستشهد جيدون بابن خلدون الذي عدّه مؤسساً لعلم الإجتماع الريفي ـ التمدني. وتركّزت إستشهاداته عن هذا الموضوع على ما حدث في تاريخ الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية الموريا Maurya في الهند وإمبراطورية الهان Han الصينية[2]. ولكنه مع الأسف عند حديثه عن العامل الأساس وأثره في توسيع حركة التمدن يكرّر الأمثلة السابقة دون ذكر ما أنجزته عمليات الفتوح الإسلامية من حركة تمدنية متصاعدة وشاملة في منطقة واسعة في المشرق الأسلامي وفي المغرب العربي[3]. وكرّر كيدون آراءه في أثر العامل السياسي وفي ظهور المدن ونموها ثم اختفائها في دراسته القيّمة الأخرى (ظهور وسقوط المدن ـ تأمل نظري)[4].

فضلاً عن ذلك فإن جيدون خلال حديثه عن التشابهات الإجتماعية والطوبوغرافية بين المدن قبل حركة التصنيع وبين المدن الآسيوية خاصة نجده متأثرا بالأوصاف التي قدّمها المستشرقون الفرنسيون وبشكل خاص جورج مارسيه وسوفاجيه، على الرغم من سعة أفق مقارناته وشموليتها لمدن صينية وهندية. وأمثلته عن المدن العربية تتركز بفعل التأثير نفسه على شمال أفريقيا بوصفها أنموذجاً للمدينة الإسلامية ولاسيما مدينة (فاس)[5]. وبالإضافة إلى دراسات كيدون، هناك أنموذج آخر من الدراسات الأمريكية التي ساهم فيها علماء الإجتماع الحضري من أمثال الإجتماعي بينيت F.Benet في بحثه (مفهوم التمدن الإسلامي)[6]. فهو يرى بأن الاختلاف الجوهري بين مدن العالم القديم والمدن الإسلامية هو أن نشأة المدن الأولى كانت أسطورية ملحمية، في حين أن المدن الإسلامية قد نشأت في مدة تاريخية معروفة ومحدّدة ومدوّن عنها في

---

(1) Ibid., pp. 76.

(2) Ibid., pp.71-72.

(3) Ibid., pp.70-71.

(4) Gideon, "The rise and fall of cities: A theoretical perspective" in International J. of Comparative Sociology (Iv/ 1963) pp. 107-20.

(5) Gideon, Pre - Industrial, pp. 91-2, 100-101.

(6) F.Benet: "The Idology of Islamic Urbanization" in International J. of Comparative (Vol. IV/1963) PP. 211-226.

المؤلفات التاريخية لذا - كما يقول بينيت فإن الباحثين قد أخطأوا في التحدّث عن كيفية تأسيس أو نشوء هذه المدن وعن التحولات التي شهدتها القبائل البدوية ضمن عملية أنتقالها من مرحلة البداوة إلى مرحلة الاستقرار. ويولي بينيت Benet أهمية كبيرة في دراسته الى أثر البداوة في المدينة واتضاح ذلك في التقسيمات والتوزيعات الطوبوغرافية للمدينة، وكذلك في محلاتها المغلقة. وهو يرى بأن محاولات عدّة قد اتخذت لاجتثاث التقاليد البدوية من بين المستقرين المسلمين في المدن كما قام به زياد بن أبيه في البصرة[١]. أما بالنسبة إلى وجهة نظره في الإسلام وتأثيره على حركة التمدن، فيقول:- إن الإسلام دين تمدني وإنه ظهر أولاً في مدن تجارية، وقد أدى دوراً فعّالاً في إعادة البناء التمدني الذي نراه متمثلاً بالمدن[٢]. فالدين الإسلامي كان بحاجة إلى مسجد جامع وأربعين شخصاً من أجل إقامة الصلاة، وتعد هذه ضمن حدود تلك المدة في القرن السابع الميلادي، شروطاً تمدنية. إن التاريخ العالمي في الإسلام هو تاريخ مدن (أنباء القرى) كما جاء في القرآن الكريم.

ولكن من الجهة الثانية يشير بينيت إلى أن المدينة الإسلامية مع هذا مدينة سياسية؛ ويستشهد بابن خلدون فيما يتعلق بارتباط حياة المدينة الإسلامية ونموّها وموتها بحياة الدولة التي أسّستها، فهي تموت بموت الدولة. وبذلك فإنه يصل إلى نتيجة مفادها:- المدينة الإسلامية تختلف عن المدينة الأوربية في مسيرتها التاريخية، فهي غالباً ما تكون وقتية Passing Affair ومغامرة قصيرة المدى ترتبط بظهور دولة تطمح في إثبات سيطرتها على مكان ما. وإن أراضي الإسلام مملوءة Pock Marked بهياكل مدن ميتة قديمة؛ بخلاف ما تتميز به المدن الأوربية من استمرارية في مسيرتها التاريخية، إن عملية الهدم وإعادة التمدن قائم ومستمر في كل وقت في أوربا، وأن الأوربيين يبنون ما تهدّم نفسه وبذلك صارت عملية التمدن عملية مستمرة، أما المدن الإسلامية فهي قصيرة العمر، وأن موتها نهائي، ولذلك فإننا نشهد خلال كل بضعة أجيال أنماطاً تمدنية جديدة[٣].

وهناك أيضاً دراسة كل من

---

(1) Ibid., pp.216-17.

(2) Ibid., p. 215.

(3) Ibid., p, p. 212.

ضمن هذه المجموعة من الدراسات العامة للمدن، فالمؤلفان في كتابهما (كيف تنمو المدن، علم الإجتماع التاريخي للمدن)[1] يذكران موقع المدن الإسلامية في علم الإجتماع التمدني، ويشيران إلى أن سكّان المدينة الإسلامية لم يتواجدوا إلا في مسألة خضوعهم الجماعي للسلطان، وأن وحدتهم هذه لم تنبثق عبر تماسكهم تجاه القانون كما هو الحال في المدينة الإغريقية والرومانية والأوربية في العصور الوسطى؛ فأهالي المدينة الإسلامية منقسمون على أنفسهم، تقسيماً دينياً وإقليمياً وعنصرياً، وكذلك إلى جماعات وكتل لكل منها رئيسها وقوانينها، وأنهم لم ينتظموا في نقابات أو تنظيمات حرفية. وبعبارة أخرى يقول المؤلفان ـ فإنه يمكن تسميتهم بساكني المدينة لا غير لكنهم في الحقيقة لا يمتّون بصلة مدينية اليها[2].

كذلك هناك دراسة هاموند Moson Hammond (المدينة في العالم القديم) فهو على الرغم من تركيزه على وضع المدينة في الحضارات القديمة لكنه أيضاً يتناول عدة جوانب تتصل بوضع المدينة الإسلامية نفسها. ويرى بأن العديد من المدن الإسلامية من أمثال بغداد وسامراء والقاهرة قد ظهرت وانتعشت في مناطق لم تتمتع إلا بالقليل من الأصالة في التاريخ التمدني ـ الحضري[3]. ويقول أيضاً:- إن المدن الإسلامية كانت بصورة رئيسة مراكز للقيام بالواجبات الدينية، وإن العرب المسلمين لم يروّا في المدينة على أنها تمثّل وجوداً سياسياً واجتماعياً، فكانوا ببساطة ينظرون إليها بوصفها مكانا لتجمع الناس، ولذلك فإنها تدار كأي بقعة أخرى. وعلى هذا فإن العرب المسلمين لم يعيروا أهمية الى تأسيس مؤسسات مدينية[4]. صحيح ـ حسب قول هاموند ـ إن الرسول محمد كان أصله من مجتمع متمدن، وأن القرآن يحتوي على العديد من الإشارات المتعلقة بالتمدن، غير أنه من الجهة الثانية نرى بأن أغلب المسلمين الأوائل كانوا بدوا ويرجعون الى أفراد من القبائل المتنوعة. وقد بقيت تركيباتهم القبلية الإجتماعية سائدة في المدينة. وكانت القبيلة تمثّل الوحدة الإجتماعية

---

(1) Jean Comhaire Werner J, Cahnman: How cities grew? The historical sociology of cities (New Jersey 1965, 3rd ed.).

(2) Ibid., pp.6-7.

(3) Mason Hammond: The City in the Ancient World (Harvard 1972).

(4) Ibid., pp. 341, 342.

المدينية الأساس. فالمدينة إنما كانت معسكرات لقبائل مستقرة. وعلى الرغم من أن العرب قد اتخذوا مدناً سبق أن كانت موجودة من قبل غير أنهم قد شكّلوا هنا أيضاً البنية الإجتماعية القبلية[١] نفسها. ويكرّر هاموند الآراء التي طرحت سابقاً التي تفيد بأن المدينة الإسلامية كانت تقوم بوظيفة العاصمة للبيت الحاكم، وسرعان ما يتركها الحكّام الذين يعقبون مؤسسيها[٢]. وينهي عرضه هذا بالإستنتاج الآتي:- فعلى الرغم من التطوّر العالي المستوى الذي بان في بعض المدن أو العواصم العربية الإسلامية، فإنه بالإمكان النظر إلى الحضارة الإسلامية على أنها كانت ضد حركة التمدن. أما الاستمرار في بقاء بعض المدن البيزنطية والرومانية فكان أمراً عرضياً أكثر من أن يمثّل أي سياسة هامة[٣]. من الواضح بمكان أن أفكار هاموند السابقة تميل بالإتجاه نفسه الذي وقفه بلانهول أكسفير الفرنسي، علماً بأنه قد أدلى بجملة آراء أخرى مناقضة لموقفه المعادي للحضارة الإسلامية أولدور الإسلام في التمدن. فيقول مثلاً خلال تعرضه لعلاقة الإسلام بحركة التمدن :- الإسلام لم يكن ضد التمدن كلياً لكنه مع ذلك نظر إلى الدين مسوغا لتأسيس المدن. والنص باللغة الانجليزية هو:

"Islam as a way of life was not entirely anti urban, it did look to religion as the Justification for cities"[٤].

وفي مكان آخر يذكر هاموند أنه على الرغم من أن المسلمين قد أنتجوا هذه الحضارة المتمدنة، فإنهم كانوا يؤكدون الروابط القبلية بوصفها أساساً لتركيب المجتمع وبنيته. فالمدينة بالنسبة إليهم ظاهرة مادية وليس كيان أجتماعي أو عضوي Organic[٥]؛ ويصرّح في مجال آخر برأي مناقض ثالث حينما قال بأنه من الواجب الإعتراف بأن العديد من المدن الإغريقية والرومانية قد تضاءلت أهميتها فعلاً وأصبحت مجرد قرى، أو أنها قد هجرت خلال المدة الإسلامية والتركية. ولكن في المقابل ظلّ عدد من المدن الأخرى محتفظاً بالإستمرارية التمدنية حتى الوقت

---

(1) Ibid., p. 342.

(2) Ibid., p. 342.

(3) Ibid., p. 342.

(4) Ibid., p. 354.

(5) Ibid., p. 345.

الحاضر[1]. ويعود مرة رابعة فيناقض تلك الآراء عندما يتحدث عن الغزوات التي تعرّضت لها الإمبراطورية البيزنطية منذ القرن السابع الميلادي وحتى القرن الخامس عشر سواءا كان من قبل العرب المسلمين أم من السلاف أم من الأتراك فيقول إن هذه الغزوات قد وجّهت ضربة شديدة إلى المدن Polics البيزنطية؛ وذلك لأن أولئك الشعوب (كالألمان في الغرب) لم تكن وجهتهم بالأساس وجهة تمدنية، ولأن الإسلام قد عد المدينة مجرد وجود ديني لا سياسي[2]. وكان الأتراك أكثر من العرب المسلمين في توجّههم المعادي للتمدن، وأنهم فضّلوا الحياة كفلاحين أو محاربين، وأن مدناً في الأناضول والبلقان بضمنها اليونان قد انكمشت أهميتها تحت حكمهم وأصبحت مجرد قرى كأثينا مثلاً فقد كانت تتمتع بأهمية تمدنية عالية خلال الحقبة البيزنطية بينما صارت خلال السيطرة العثمانية مجرد قرية تعيسة[3].

ومن الدراسات الأخرى التي تضمّنها هذا الإتجاه الإجتماعي دراسة جانيت أبو لغد المتخصّصة بمدن شمال أفريقيا. فقد حاولت في مؤلفاتها المختلفة وفي الورقة التي تقدّمت بها إلى مؤتمر مدن الشرق الأوسط العودة إلى التأصيل التاريخ القديم والإسلامي من أجل أن تدعم وجهة نظرها الإجتماعية تجاه التمدن الإسلامي. ففي هذه الورقة وعنوانها (نماذج من التجارب التمدنية) ركّزت على دراسة مدينة القاهرة وأبدت رأياً مفاده أن الإسلام قد نجح في السيطرة والتغلب على التمايز الطبقي والتمايز الثقافي، وأفلح أيضاً في تقليل الأبعاد والفوارق الإجتماعية بين الجماعات المختلفة.

"Class cleavages, cultural cleavages and to decrease social distance even among people who are objectively very dissimlar"[4].

وهدفها من التتبع التاريخي القديم للمشاكل التمدنية التي واجهتها مدينة القاهرة هو إظهار التباين التمدني المعاصر فيها. فقد وجدت مثلاً أن مركز التمدن التقليدي أو

---

(1) Ibid., p. 345.

(2) Ibid., p. 358.

(3) Ibid., p. 342-43.

(4) Janet Abu Lughud: "Varieties of Urban experience: Contrast, co-existene and coalescence in Cairo" in Middle Eastern Cities".Ed. by Ira M.Lapidus (Los Angeles 1969) p. 183.

القديم يتمثّل بأقدم محلّة في القاهرة خلال العصور الوسطى التي ترجع إلى مدة الفاطميين والأيوبيين والمماليك، وأن أغلب الطبقات العاملة أوالذين يشتغلون بالأنسجة والأخشاب والجلود والحرف المعدنية يتركّزون في هذا الجزء القديم من القاهرة. بالإضافة إلى ذلك فإن عدداً من التجّار ووكلاء التجّار والملّاكين قد اتخذوا ذلك الجزء من المدينة أيضاً[1]. وتعتمد البروفسورة كذلك على الخلفية التاريخية خلال تتبعها الآثار التي رافقت الهجرة أو التي جاءت في أعقابها على نمو القاهرة سكّانياً وما أفرزته من مشاكل في الوقت الحاضر لترى فيما إذا كانت القاهرة الحديثة قد عانت هي الأخرى من هذه المشكلة نفسها تلك التي سادت في العصور الوسطى أم لا؟[2]. المهم أننا خلال تصفحنا دراسات أبو لغد نجد تطوّراً في نظرة علماء الإجتماع بالنسبة للمدينة الإسلامية، وكذلك بالنسبة لعلاقة الإسلام بالتمدن. فإنها تشير - في ورقتها الأخرى التي تقدّمت بها إلى مؤتمر الدراسات المقارنة للتمدن - إلى مسألة هامة معارضة للرأي القائل بأن المدينة الإسلامية وقتية ومتغيرة فهي ترى أن حوالي نصف المدن التي تأسست حديثاً في المغرب قد كانت من صنع وبناء المدة الإسلامية، وأن أكثرها ما زال يتمتع برخاء[3].

وأبو لغد تعتمد دائماً على التاريخ الإسلامي في أثناء مقارنتها بين القاهرة ورباط سالي وتونس وذلك لإظهار وحدتها التمدنية ومدى استمراريتها التاريخية عبر القرون حتى المدة الراهنة. وتخلص إلى نتيجة مفادها أن النظام القانوني (الشرعي) Legal System لتلك المدن الثلاثة التي تأسست خلال القرن الأول من التاريخ الإسلامي يختلف اختلافاً جوهرياً عن النظام القانوني الروماني الذي اعتمدته أغلب مدن العصور الأوربية الوسطى، فالقانون الإسلامي بحسب ما رأته هو:-

"defined forms of ownerahip and rights of development, which dictated similar distinction between private and pubic space.Private proprietors and the quasireligious state"[4].

---

(1) Ibid., p. 178.

(2) Ibid., p.167.

(3) Janet Abn Loghud: "The legitimacy of comparisons" p. 12.

(4) Ibid

ولا شك في أن نظرة علماء الإجتماع للتمدن الإسلامي التي سبق عرضها تنطلق من الاهتمامات السائدة في مجال دراساتهم. وفي هذه المناسبة فإن البرت رايس Reiss هو الآخر قد شدّد على تلك الاهتمامات فقال في مساهمته الموسومة بـ (علم الإجتماع التمدني ـ الحضري):- أكثر ما يهتم به علماء الإجتماع هو دراسة وتنظير طبقات المجتمع والتركيب (البنية) الإجتماعي، لذلك فإنهم قد استخدموا المدينة كمحلّ لاختبار نظرياتهم التي قد لا تمتّ إلى علم الإجتماع الحضري والتمدني[١]. ومن هنا فإن جميعهم قد ركّز على طبيعة التكوين الإجتماعي للمدينة الإسلامية؛ وأن جميعهم عدا أبو لغد، قد رأى ذلك التكوين الإجتماعي على كونه تكويناً قبلياً في الأساس وهذا بدوره قد أثر على التقسيمات الطوبوغرافية بل العلاقات الإجتماعية في داخل نسيج المدينة الإجتماعي. وعلى الرغم من أن وجهة نظرهم هذه تعدّ تطوّراً فيما يتعلق بدراسات المدينة، لكنهم أيضاً قد وقعوا في عدة تناقضات أثرت على المستوى العلمي لدراساتهم من الناحية التاريخية. إذ وجهت عدّة انتقادات للدراسات الإجتماعية المتعلقة بالمدن، فقد رأى جيدون Gideon أن علم أجتماع المدن الأمريكي ما زال يعلّق عناية أساس وتشديد مهم على جمع المادة لا على بناء أنظمة نظرية[٢]. وفي مجال آخر يشير إلى أن هناك عدداً من الإجتماعيين ممن عرف التمدن بحدود سكّانية لا غير[٣]، فحقيقة التمدن ليست أرقاما فحسب. ولقد وقع علماء الإجتماع فريسة النظريات المتعددة المتعلقة بالتمدن مما أدّى إلى وقوعهم في خضم التناقضات؛ فهم لم يعيروا للتاريخ أهمية كبيرة، كما أنهم اعتمدوا على نماذج قليلة جداً ربما تكون فردية ثم أعطوا أوصافاً وتعميمات جازمة. فدراسة كمبيروورنر Cambair Werner ركّزت على مدينة فاس وذلك لظهور العزلة الأثنولوجية بوضوح في هذه المدينة بالذات، لكنه من الصعب جدا عد مدينة فاس قاعدة عامة تنطبق على بقية المدن الإسلامية. فلقد كانت الحواجز الإجتماعية القائمة على التقسيمات القبلية حقيقة واضحة في بداية الفتوحات الإسلامية وخلال القرن الأول للهجرة، غير أن هذه الحال قد تغيّرت خلال القرون الثالثة والرابعة والخامسة للهجرة عندما تبدّلت

---

(1) Albert J: Reiss: The sociology of urban life: 1946-54" in Paul K. Hatt and Albert J. Reiss (Eds.) Cities and Society: The revised reader in Urban Sociology (New York 1957) p. 10-11.

(2) Gideon, Sjoberg: "Theory and research" p. 178, (204), Ibid, p. 163.

(3) Goitein: "The rise of Middle Eastern Bourgeoisie in Early Islamic Times" in Studies in Islamic History and Ins-titutions (1966(p. 225, (Masdjid) in E.I- by Pederson.

العلاقات الإقتصادية والإجتماعية والإنتاجية فصارت المدن تبعاً لذلك تمثّل مراكز إنتاجية تجارية أو زراعيةأو إدارية أو سياسية فانفتحت أبوابها لجموع من الوافدين والمهاجرين الذين لا يتنسبون إلى هذا الأصل القبلي أو ذاك وانخرطوا في حياة المدن الإنتاجية ولذلك انصهرت نتيجة لهذه التغيرات وبمرور الزمن، العلاقات القبلية وتحطّمت الحواجز التي كانت موجودة وقائمة على وفق النسب والعزلّة القبلية، والواقع أن الإجتماعيين قد بالغوا في التركيز على هذاالعامل. وهناك عدّة أدلّة أدلى بها عدد من مؤرخي المدن أمثال كويتاين المتخصّص بدراسة وثائق الجنيزة اليهودية الذي يقول إنه من الخطأ الفادح أن نعزو إلى البدو اتجاه قلة التذوق للحياة المدينية، ويشير إلى أن نظرة إلى الأدب الإسلامي ستقدم استشهادات غير قليلة عن اللوم الذي وجّه ضد البذخ المتزايد في تشيد العمائر وإلى الصرف الباذخ على تشييد المساجد. ويضيف قائلا :بأن المسلمين المؤسسين للأمصار كانوا من أشدّ المحبين للبناء والعمران، وأن محمد بن سعد في طبقاته يشير في عدة مجالات إلى ما قام به المسلمون الأوائل من أعمال في بناء البيوت والوحدات العمرانية الأخرى(١). لقد كان أهل المدن العربية يحبّون مدنهم ويفخرون السكن فيها أو الانتساب إليها؛ ويورد البروفسور كويتاين رواية تتعلق بعقد زواج إشترط فيه الزوج على أهل زوجه أن لا يبدّل الزوج المدينة بأي مكان آخر دون موافقة زوجه. ويذكر أيضاً رسالة أخرى توّضح بأن الزوج لم تتحمل العيش في الريف لذلك هربت من زوجها واتجهت مهاجرة إلى القاهرة، فرضخ الزوج لطلب زوجه بالإنتقال من الريف إلى دمياط. وهناك عدد من الوثائق في الجنيزة تفيد بأن عددا من الموظفين قد تركوا أماكن عملهم في الريف وعادوا إلى المدينة للسكن فيها(٢). ويذكر لابيدوس ـ وهو متخصص آخر في تاريخ التمدن العربي الإسلامي ـ كيف كان المسلمون يفتخرون بمدنهم ويحبونها حبّا جمّا، فكتبوا عنها المؤلفات وشدّوا إليها الرحال(٣).

ويقول لابيدوس :- المدينة تحمل قدسية خاصة في نظر المسلمين، وكان العرب يفاخرون دائماً بمدنهم ويفضّلونها على غيرها كما يفضّلون العيش فيها بدلاً من

---

(1) Goitein:"Caire: An Islamic city in the light of the Geniza Documents" in Middle Eastern Cities (1966) p. 83.

(2) Ira M. Lapidus: "Muslim Cities and Islamic Society" in Middle Eastern Cities, p. 75.

(3) Ibid., p. 47.

الريف، وكانوا كالاوربيين والأمريكيين يكرهون الفلاحة وسيلة للعمل والإنتاج[١]. وهذا كريبر Graber يتحدّث عن مدى حبّ المسلمين للبناء مستنداً بذلك الى نقش يعود إلى تاجر أقمشة كان قد بنى جامعاً في القاهرة، فيعلّق على ذلك بقوله: - هناك عدّة استشهادات في يوميات المؤرخ الحنبلي ابن البناء بشأن نشاطات الأفراد العمرانية في بغداد العاصمة[٢]. ويلمّح رسل Russell في دراسته عن سكّان الحقب القديمة والوسيطة إلى أن الإسلام حقّق إنجازاً كبيراً بتشجيعه على سكنى المدن مما أدّى إلى زيادة كبيرة في سكّان المدن في شمال أفريقيا ودمشق وأنطاكية وبلاد وادي الرافدين[٣]. وأن التاريخ الإسلامي، فضلا عن هذا كلّه يزوّدنا بالكثير من الإستشهادات التي تخالف وجهة نظر الإجتماعيين السابقة.

إن التناقضات التي اشتملت عليها دراسة هاموند مثلاً هي الأخرى تدعم الرأي السابق في أن وجهّة نظره ليست وجهة نظر مؤرخ تستند الى استشهادات وأدلّة تاريخية أكثر منها نظرة عالم جتماع مقلدة. فهو يزعم وقوف الحضارة العربية الإسلامية ضدّ حركة التمدن وفاتته حقيقة أن تعريف الحضارة البسيط هو التمدن، وأن جميع المؤرخين الأوربيين قد اعترفوا بفعالية الحضارة العربية وبان الإسلام هو دين مدني في طبيعة نشأته الأولى. والبروفسور هاموند يشير إلى أثينا بأنها قد أصبحت خلال السيطرة التركية مجرد قرية ويرجع ذلك كما يرى إلى أن الأتراك كانوا هم أيضا ضدّ التمدن متناسياً بل متجاهلاً حقيقة مهمة وهي أن منطقة حوض البحر المتوسط قد خضعت لعدّة تطوّرات ومتغيرات جديدة أدّت بدورها إلى اختفاء مدن من على المسرح نهائياً أو الى تضاؤل أهميتها إلى مرتبة ثانوية، كما أدّت أيضاً إلى ظهور مدن أخرى. فضلاً عن هذا فإنه من المعروف تاريخياً بأن حركات الفتوحات الإسلامية لم تكن سلبية تجاه التمدن فلم تخرّب المدن القديمة الموجودة في المنطقة. والصحيح غير ذلك، اعتماداً على أقوال المتخصّصين في التمدن من الغربيين، بأن هذه المدن اليونانية والرومانية قد أنحلت فعلاً وأصبح دورها ثانوياً في القرن الثامن للميلاد فصاعدا وقد تناقصت

---

(1) Graber, Oleg: "Cities and citizens" in Islam and Arab World, ed B. Lewis (1976) p. 89.

(2) Russell: "Late Ancient and Medieval Population" in Transactions of the American Philosophical Society field at Philadelphia for promoting useful knowledge, New series, Vol. 48, part- 3 (1958) pp. 89, 91.

(3) Middle Eastern Cities (A symposium on Ancient, Islamic and Contemporary Middle Eastern Urbamism(Eb. by Ira M. Lapidus (Los Angeles, 1969) cot 27-29 (1966).

أهيمتها بعد أن تحولت إلى مجرد قرى قبل أن يشارك المسلمون في عمليات الفتوح بمدة غير قصيرة. وأوضح مثال على ذلك مدينة كارتج في شمال أفريقيا وبالميرا في بلاد الشام في الوقت الذي أستمر فيه بقاء مدن أخرى بل بخلاف ذلك أخذت تحتّل مراكز هامة ورائدة في حركة التطور التمدني والحضري الإسلامي كدمشق وحلب والقدس والاسكندرية. ومن كل ذلك أريد القول بأن الدراسات الإجتماعية على الرغم مما قدّمته من نظريات وتفسيرات متطوّرة بالنسبة للتمدن الإجتماعي، غير أنها وقعت في مغالطات عديدة وذلك لعدم مراعاتها الأرث والتواصل التاريخيين للتمدن.

بقي علينا الآن أن نتعرّض لتطوّر الفكر التاريخي المتعلق بالمدن العربية الإسلامية في الدراسات الواقعة ضمن هذا الإتجاه. فبعد حوالي سنتين من عقد الندوة العلمية في أكسفورد في بريطانيا بعنوان (المدينة الإسلامية) التي ساهم فيها عدد من الباحثين الأمريكان أمثال لاسنر وسكانلون عقدت ندوة علمية أخرى Sysmposium في مدينة لوس أنجلس في كاليفورنيا وأستغرق عقدها مدة ثلاثة أيام من ٢٧ أكتوبر إلى ٢٩ أكتوبر ١٩٦٦ بعنوان (مدن الشرق الأوسط Middle Eastern Cities). والاختلاف الرئيس بين هاتين الندوتين هو أنه في الوقت الذي كرّست بحوث الندوة الأولى على المدينة الإسلامية حصرا، تناولت الندوة الثانية المنعقدة في أمريكا المدينة والتمدن في الشرق الأوسط قديماً ووسيطاً وحديثا بمعنى آخر توسع نطاقها التاريخي الخاضع للدراسة إذ كان أسلامياً ومعاصراً. فقد قدّم فيها البروفسوراوبنهايم Oppenheim ورقة بخصوص المدن العراقية القديمة، والبروفسور كريبر Graber بحثا بشأن الجامع وهي دراسة أثرية ذات صلة بالأحوال التمدنية في المدينة في المنطقة العربية، وقدّم البروفسورلابيدوس دراسة عن المدن الإسلامية والمجتمع الإسلامي) وأما البرفسور كويتاين فدرس القاهرة على ضوء وثائق الجنيزة، وقدّم البرفسور شارل عيساوي بحثا عن (التحولات الإقتصادية والتمدنية في الشرق الأوسط)، وقدّمت البرفسورة جانيت أبو لغد دراسة عن القاهرة أيضاً بعنوان (نماذج من التجارب التمدنية)[1]. وقبل التعرض لوجهات نظر الدراسة المرتبطة بالبحث لابد من الإشارة إلى الخلاصة العامة التي توصلت إليها الندوة بالنسبة للمدن الإسلامية وقد قدّم هذه الخلاصة البروفسور آدمز المشهور بكتاباته عن التمدن الشرقي القديم، فهو يقول:

---

(1) Ibid., p. 192.

The conclusion that traditional Middle Eastern Cities were relatively segmented, " unstable and acephalous is not meant to imply a denial that were important functional links, shared values and unifying symbol systems that distinguished these cities and allowed them to survive as creative cultural centers "[1].

فالمدينة الإسلامية يجمع بينها عدد من الروابط الوظيفية الهامة، والفضائل المشتركة والأنظمة الموحدة التي تميّزت بها ومنحتها الحياة لأن تبقى حيّة كمراكز ثقافية فعّالة. فقراءة هذه الخلاصة الهادفة تظهر لنا دون شك مدى التطوّر الذي طرأ على الفكر التاريخي للتمدن الإسلامية. فالورقة التي قدّمها أوبنهايم عن المدن القديمة تتوغل في دراسة مدن العراق القديمة، ولاسيما مدينة سيبار. والبروفسور في الوقت نفسه يركّز على مسائل جوهرية رئيسة في حقل التمدن نظير علاقة المدينة بالضاحية، وتركيباتها وبنيتها الداخلية والخارجية، وبنيتها الإجتماعية، وطبيعة إدارتها، وعلاقتها بالعاصمة بابل، والحياة العائلية والمعاشية لطبقاتها الإجتماعية، والوظائف الموجودة فيها، ومؤسساتها ومدى استقلاليتها.وهذه جميعها ـ ذكر آنفا ـ هي الأمور الهامة التي يركّز عليها الباحثون الأمريكان في دراساتهم عن التمدن. أما كريبر فإنه حاول أن يبرّز في ورقته حول الجامع المراحل التاريخية التي مرّت به أهمية ووظيفة هذه المؤسسة الدينية سواء أكان من حيث المكان والموضع أم الهيأة والناحية العمرانية. وقد ساهم كريبر أيضاً في كتاب (الإسلام والعالم العربي) المنشور عام ١٩٧٦، بدراسة عن المدينة وأهلها مشخّصا جوانب أجتماعية طريفة عمّت في المدينة الإسلامية.

لقد كتب كويتاين Goitein العديد من المقالات والبحوث والدراسات القيّمة التي تناولت جوانب مختلفة من التاريخ السياسي والإداري والإجتماعي والإقتصادي في الإسلام إستناداً الى وثائق الجنيزة اليهودية، وكانت ورقته في المؤتمر بعنوان (القاهرة مدينة إسلامية في ضوء وثائق الجنيزة) وذكر فيها معلومة عن أصل كلمة مدينة بأنه أرامي وتعني Din العدالة. لذلك تعدّ المدينة المكان الذي تطبّق فيه العدالة، إذ يقيم فيها أعضاء الحكومة المسؤولة عن هذا الإجراء أي تحقيق العدالة. وأن المدينة المكان الذي يقيم فيه أعضاء السلطة لذلك المفروض أن يسود فيها الأمن والإستقرار أكثر من أي منطقة أخرى. أما عن علاقة الريف بالمدينة فالمعتاد أن يتوجه أهالي

---

(1) Ibid., p.74.

الريف من الفلاحين ليأتوا يوم الجمعة إلى المدينة ويقيمو صلاة الجمعة ثم يحضروا أسواقها ومن ثم يكونوا على صلة قريبة بالسلطة المركزية[١]. ثم يعرج على مسألة طريفة تكرّرت في دراسة البروفسور شارل أيساوي وهي:- أن العواصم الرومانية أمثال قيسرية Caesarea في فلسطين، والأسكندرية في مصر، وكارثج في أفريقيا كانت تقوم بوظيفة العواصم التي كانت تقع على البحر، الأمر الذي مكّنها من الاتصال المباشر بروما عاصمة العالم؛ بينما كانت تقع العواصم التي أتخذها العرب أمثال دمشق والفسطاط والقيروان بعيدة عن البحر فهي لذلك كانت آمنه من هجمات البيزنطيين المباغتة[٢]. فالبروفسور كويتاين سواء أكان في ورقته تلك أم في كتابه (دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية) لا يتفق ونظرية ماسنيون عن وجود نقابات في المدن الإسلامية منذ القرن التاسع الميلادي؛ ولكنه يقول بأنه لا يستطيع تفنيد الفكرة الداعية إلى وجود نقابات حرفية بين القرن السادس عشر والتاسع عشر. ويقول بأنه لا توجد هناك أية إشارة تشير إلى وجودها قبل ذلك التاريخ أي منذ القرن التاسع والثالث عشر للميلاد. فكانت مؤسسة الشرطة هي التي تأخذ على عاتقها مراقبة السوق في المدينة وليس النقابة[٣]. ولذلك فإنه خصّص مجالاً غير قليل من دراسته لمناقشة مفهوم النقابة ومضامين صلاحياتها مشيراً إلى عدم وجود مثل هذه الصلاحيات في المدينة الإسلامية. ووظائف النقابة كما يذكر هي:

١- مراقبة عمل أعضائها لدعم مستواهم المعاشي.

٢- تهيئة مستلزمات تثقيف التلاميذ وضمهم الى النقابة.

٣- حماية أعضائها من أي منافسة من الأصناف الأخرى.

٤- ارتباطها بالدين وهذا موجود في البلدان المسيحية[٤].

ومن الطريف ذكره أن كويتاين في مناسبة أخرى يشير إلى مثل تلك الوظائف

---

(1) Goitein: "Cairo: An Islamic City" p. 82.

(2) S.D Goitein: Studies in Islamic history and Institutions,(Leiden 1966), p. 267, 269-70 idem: "Cairo: An Isla mic City" p. 94.

(3) Goitein: "Cairo: An Islamic City" p. 94.

(4) Ibid., p. 94.

والمسؤوليات، وكما وردت أيضا في الجنيزة، ويؤكّد وجودها في المدينة الإسلامية لكن يهود هذه المنطقة أو تلك كانوا هم الذين يقومون بتلك الوظائف أو تقوم بها مؤسسةالشرطة، أو النبلاء المتنفذين(١) سواء أكانوا يهودا أم مسلمين ولم تقم بها المنظمات الحرفية. ومن الأمور التي ينبغي ذكرها هنا أيضاً أن كويتاين كما أوضحنا سابقاً يعدّ من المعارضين للرأي القائل بأن العرب لم يكونوا ميالين للعيش في المدن ولم يتعاطفوا معها، فهو يرى خلاف ذلك فيقول: إن الفضل يرجع إليهم في اتخاذ المدن وتأسيسها وتخطيطها وتشييد البيوت والمراكز العمرانية الأخرى. وهو فوق ذلك يرى فضل ((هذه الثورة التمدنية التي جاء بها الإسلام على التاريخ التمدني العالمي))(٢). والبروفسور لابيدوس هو الذي أشرف على تحقيق أوراق الندوة هذه وقدّم لها مقدّمة قيّمة، فضلاً عن مساهمته بورقة عنوانها (المدن الإسلامية والمجتمع الإسلامية)، وهو أيضاً صاحب كتاب (المدن الإسلامية في العصور الوسطى المتأخرة)(٣). وركّز في الكتاب على المدة المملوكية في مصر. والملاحظة الهامة في بحثه الآنف تلخص بكون آرائه فيها نفسها التي سطّرها في كتابه المشار اليه على الرغم من وجود بضعة إضافات جديدة ومهمة. أوضح لابيدوس رأيه في مقدمة الكتاب حيث قال بأن الفتح العربي الإسلامي لم يؤدِ إلى تخريب أو هدم المدن القديمة، فإن هذه المدن كانت أصلا قد انتهت مهمتها وفاعليتها كمدن (بوليس) قبل أن يأتي المسلمون بمدة طويلة(٤). وهو يرى أيضاً بأن المسلمين قد أوجدوا عدداً من المدن الجديدة المهمة جداً من أجل إقرار القبائل الفاتحة. وبعد ذلك كلّه فإن الدول العربية بالتعاقب قد قدّمت دفعاً كبيراً لحركة التمدن ومن ثمّ ساعدت على توسيعها ونشرها إلى مختلف الأجزاء في المنطقة العربية الإسلامية. فأتساع حركة الزراعة والتجارة، ونمو الحاجات الإدارية والسياسية قد أدّت كلّها إلى نمو المدن والتمدن الإسلامي(٥). فهم لم يؤسسوا مدناً جديدة فحسب بل وسيطروا على عدد من المدن القديمة الموجودة

(1) Goitein, "The rise of Middle Eastern Bourgeoisie" in Studies in Islamic History and Instiutions, p.225-6, 241.

(2) Lapjdus, I.M. Muslim Cities in the later Middle Ages(Cambridge, Mass, 1967).

(3) Lapidus, I.M. Middle Eastern Cities, p. 22 (Inrtoduction).

(4) Ibid,, p.22.

(5) Lapidus: "Muslim Cities and Islamic Society" p. 63.

سابقاً وعملوا على توسيعها وتطويرها وانشأوا لها ضواح جديدة بما يمكن تسميته بأقاليم المدن. والأنموذج البيّن على هذا تأسيسهم ضواح خاصة بالأمراء كانت تشتمل على وجه التحديد قصر الأمير أو الوالي أو الحاكم، وعلى مؤسسات الإدارية، والمعسكر الخاص بالقوة العسكرية[١]. وهو يرى خلاف ما أفادت به الآراء التي سبق ذكرها المؤكة مرحلية المدن، باستمرارية المدينة الإسلامية وعدم وقتيتها أو قصر عمرها. ويقول:- منذ بداية التدوين التاريخي كانت مدن الشرق الأوسط وحضارته متشابكتين وتجمعهما عناصر مشتركة، فقد مثّلت المدن سواء أكانت قديماً أم خلال العصور الوسطى منظمة إجتماعية سياسية، وقد أديت دوراً ثقافيا فعّالاً. أما في الوقت الراهن فإنها تمثّل مراكز للتطور الإقتصادي والتجدد الحضري الذي أدى دوراً قوياً في تغيير مجتمع الشرق الأوسط[٢]. ويستنتج في ختام دراسته بأن المسلمين كانوا محبين للعيش في المدن، وكانوا يتفاخرون بها، فكانت المدينة تملك قدسية متميزة بالنسبة اليهم[٣]. ولابيدوس يمتدّح سعة المدينة الإسلامية وكبر حجمها. فمدن مثل بغداد والقاهرة كان سكانهما يقدّر بـ ٢٠٠,٠٠٠ أو ٣٠٠,٠٠٠ نسمة وهو تعداد يكبر أي مدينة سبق أن وجدت في الشرق الأوسط. فضلا عن ذلك فهذه المدن لم تكن مدناً مفردة منعزلة بل كانت مركبة، أو بعبارة أخرى مؤلفة من مجموعة من المدن والقرى الكبيرة أو البلدات، فكانت مدينة بغداد مثلاً محاطة بالحربية من الشمال وبالمركز التجاري (الكرخ) من الجنوب وتقابلها الرصافة من جانب نهر دجلة الآخر. وكذلك وصفت مدينة القاهرة إذ كانت تشتمل على الفسطاط والعسكر والقطائع[٤]. بالأضافة الى كلّ ذلك فأن لابيدوس سواء أكان في ورقته أم في كتابه يناقش موضوعات أجتماعية في بنية المدن كمدينة حلب ودمشق خلال المدة المملوكية؛ وهي مناقشة تفيد كثيراً في أظهار دور الحركات الشعبية المعارضة لسلطة المماليك السياسية، ويدرس دور المحلّات ومدى أستقلاليتها ويشدّد على وجود النقابات الحرفية[٥].

(1) Lapidus: Middle Eastern Cities (Introduction) p. 5.

(2) Ibid., p. 5.

(3) Lapidus: "Muslim Cities" p. 61.

(4) Lapidus: Muslim Cities in the later Middle Ages, p. 169, 199, 200.

(5) Charles Issawi: "Economic change and urbanization in the Middle East" in Middle Eastern Cities, pp. 102-21.

اما ما تبقى من الأوراق التي قد تقدّمت إلى هذه الندوة العلمية فتوجّهت لتبحث عن مدن المنطقة العربية المعاصرة ومنها على سبيل المثال ورقة البروفسور شارل أيساوي التي تركّزت على مسألة (التغير الإقتصادي والتمدني في الشرق الأوسط)[١]. والبروفسور على الرغم من حديثه عن التغيرات الإقتصادية والإجتماعية والتمدنية لمدن المنطقة المختلفة وخاصة مدن العراق وإيران في المدة الحديثة فإنه يشير في تطرقّه للخلفية التاريخية لذلك التمدن إلى بضعة مسائل سبق أن طرحها الباحثون الفرنسيون من قبله أمثال بلانهول أكسفير .Xavier فيقول مثلاً :- إن من السمات البارزة للمدينة الإسلامية (Town) أفتقارها لمدينة الدولة City State وخلّوها تقريباً من المؤسسات والإدارات المستقلّة، وتقسيم محلاتها وطوبوغرافياتها على أساس ديني. فيقول:- كلّ محلّة كانت مغلقة على نفسها بأسوار وبوابات[٢]. وهي فكرة سبق ان طرحها من قبل مارسيه في مقالته Urbanism Musulman (P. 219) وبلانهول أكسفير، ويضيف أيساوي إلى هذه الموضوعات بأن المدن الإسلامية تشابه المدن الصينية قبل مدة التصنيع ومشيراً هاهنا إلى دراسة جولد ولفروم Wolfromوعنواها (بنية المدينة الصينية قبل حركة التصنيع). وهذه الفكرة أيضاً سبق أن أشرنا إليها خلال مناقشة آراء البروفسور ألبرت حوراني ورأيه القاضي بأن المدينة الإسلامية أكثر فعّالية وديناميه من المدينة الصينية. ويماشي أعيساوي رأي كويتاين الذي يفيد بأن أكثر المدن الكبيرة في الفترتين اليونانية والرومانية كانت عبارة عن موانىء من أمثال:- أثينا وروما، وكارثج، وأنطاكية، ورودس. وكذلك الحال بالنسبة إلى المدن الأوربية الكبيرة الحديثة أمثال جنوة وفينيسيا، ونابولي وأمستردام، ولندن، وفيلادليفيا، ونيويورك، وسنت بترسبرك، وكوبنهاكن بخلاف أكثر مدن المنطقة العربية فإنها لم تكن موانىء وذلك بسبب وقوعها في الداخل وبعيدة عن السواحل النهرية والبحرية نظير حلب وبغداد والقاهرة والري[٣]، ونيسابور وأصفهان وتبريز وطهران. وواقعيا فإنه يتناسى عددا غير قليل من المدن العربية والإسلامية التجارية كالبصرة وحما وهجر..الخ.

---

(1) Welfram, Eberhard: "Data on the structure of the Chinese city in the pre- Indusrtrial Period" in Economic Develoment and Cultural Change (April, 1956).

(2) Charles, Issawi, op.cit, pp. 106-7.

(3) Robert S.Lopez: "The cross roads with the wall" in the Historian and the City, ed. By Oscar hanLdin and John Burcnard (Harvard University Press 1963) p. 29.

ومن المفيد أيضاً الإشارة إلى بحث البروفسور روبرت لوبيه Lopez المتعلق بشوارع المدن عامة. وقد نشر هذا البحث في كتاب (المؤرخ والمدينة)؛ فيرى لوبيز أن المدينة الإسلامية لا توجد إلا إذا وجد المسجد الجامع والسوق والحمام وهي سمات خاصة بها وغير موجودة في المدينة الغربية بل وتفتقر لها[1]. وكذلك بحث البروفسور وليم سبنسر Spenser المتعلق بـ (التمدن في شمال أفريقيا)[2]، الذي حاول فيه أن يتتبع أصول المدينة الإسلامية منذ الحقب القديمة والإسلامية والعثمانية مؤكداً سمتها الإسلامية، وعلى أن المسلمين قد أسّسوا المدن لإظهار شدّة تمسكهم بالدين الإسلامي، ذلك الدين الفريد في خصائصه.

(٢) أما الإتجاه الثاني لدراسات الباحثين الأمريكيين فيتمثل بتلك الدراسات التي تناولت مدينة إسلامية واحدة أو مجموعة قليلة من المدن. وبالإمكان القول بأن العلماء الباحثين في هذه الدراسات قد توجّهوا نحو موضوعات تختلف إلى حدّ ما عن توجّهات الباحثين الفرنسيين؛ فهم يركّزون على الموضوعات العمرانية في المدينة، وعلى بنيتها وأحوالها الإجتماعية وتركيب طبقات المجتمع فيها، ومدى توفّر الجوانب الصحية وكيف أفلح مؤسسوها على حلّ مشكلة الماء وتصريفه، فضلا عن النواحي الأثرية ومعالمها الأثرية... الخ. فالباحث المعروف البرفسور يعقوب لاسنر J.Lassner كتب بحثاً عن خطط بغداد وبشكل خاص عن قصر أو بلاط الخليفة[3]، وتقدم به إلى ندوة المدينة الإسلامية السابقة الذكر التي انعقدت في بريطانيا. كما أنه كتب كتاباً بعنوان (طوبوغرافية بغداد في أوائل العصور الوسطى)[4]، وتحدّث البروفسور لاسنر في ورقته عن طبيعة خطط المدينة اعتماداً على المصادر الإسلامية؛ ثم ناقش النتائج التي توصّل إليها كل من العالمين هرزفيلد وكرسويل. ويشير لاسنر خلال حديثه عن طوبوغرافية بغداد إلى مسألة هامّة تتعلق بالتطوّر الذي شهدته عملية تأسيس الأمصار في مجال الإستقرار والتمدن وكذلك في الفعّالية التجارية والإقتصادية التي أدّتها تلك المدن بعد تمصيرها. ويعلّق على ذلك قائلاً: - بأن نمو هذه الأمصار

(1) W. SPENCER: Urbanization in North Africa.

(2) J.Lassner: "The Caliph's personal Domain: The City plan of Baghdad re- examined" in the Islamic City (Oxford 1970) p. 103-18.

(3) J.Lassner:The Topography of Baghdad in the early Middle Ages,(Deteroit 1970).

(4) Ibid., p. 103.

وتطوّرها كان نتيجة من نتائج قد انطلقت من الداخل - أي مناداخل بنية المدينة ومن ثمّ توجّهت إلى الخارج - خارج المدينة الأم - ولم يتأثر بأي مؤثر خارجي؛ فهي - بناء على ذلك - تعطي انطباعاً بأنها لم تكن من تنفيذ خطّة سابقة أو عمل جاهز بل كانت من نتاج مراحل تطورية ذاتيّة عدّة[1]. ولاسنر في كتابه المشار إليه آنفا يخصّص معظم حديثه - اعتماداً على المصادر الأولية - على وصف مدينة بغداد وخططها. وهو في الوقت نفسه يعرّج على موضوع المدينة الذاتية والمدينة المخلوقة الذي وضع أصوله كما تمّ ذكره المستشرق الفرنسي بوتي، وطبّق لاسنر النظرية على المدينة الإسلامية فكرّر في هذا المجال ما سبق طرحه في ورقته بشأن أصالة تأسيس الأمصار. وهو يرى في (المدينة المدورة بغداد) أنموذجاً آخر مختلفاً في التطور التمدني[2]. ولاسنر بالإضافة إلى ذلك تناول موضوع سعة التمدن الإسلامية في العراق موازنة بالتمدن الساساني، وهو موضوع تناوله البروفسور روبرت آدمز Robert Mcc. Adams في كتابه (بلاد ما وراء بغداد / تاريخ مستقر في وادي ديالى). فمن الآراء التي أوضحها آدمز تلك التي كرّرها لاسنر هي:- إن سعة التمدن الإسلامي في العراق يمثّل، بأستثناء بغداد وسامراء، نسبة ٣٣٪ من مجموع المنطقة الحضرية التمدنية المستقرة؛ وهي نسبة إذا ما أضيف إليها كلّا من بغداد وسامراء فترتفع النسبة لتعادل أربعة أضعاف نسبة التمدن في العصر الساساني. وبناءا على هذا يمكن القول بأن نمو المدن الإسلامية قد وصل إلى أكبر مدى من التطوّر الحضري - التمدني قبل الأزمنة الحاضرة[3]. ولم تقتصر دراسة لاسنر على ذلك المجال بل توجّهت إلى إيجاد الحالات والمظاهر المتشابهة لطوبوغرافية بغداد، وأعني بهذا (القصر والجامع). وأنتهت الدراسة إلى القول بأن مجموعة (القصر + الجامع) يبدو أنها أصبحت سمة إثرية للمدينة الإسلامية؛ وترجع إلى مدة الفتوحات العربية الإسلامية، وهي سمة لم تكن معروفة في فنّ العمارة الأوربيّ[4]. كما تحدث أيضا عن مسألة تعريف المدينة وتحديد هويتها وهو الموضوع الذي أصبح شائعاً في دراسات الباحثين الأمريكان. ورجع البروفسور لاسنر من أجل حلّ الغموض الوارد في تعبير (المدينة) إلى النواحي الفقهية لتعليل

(1) Ibid., p.138-39.

(2) Ibid., p. 164.

(3) Ibid., p.133-34.

(4) Ibid., p. 180.

وجود الجامع كأساس للتميز بين المدينة والقرية[1]. ولما كنّا قد أشرنا إلى كتاب البروفسور آدمز لابدّ من ذكر بضعة كلمات عن أهميته؛ فالكتاب في الواقع دراسة تاريخية حول وادي ديالى واعتمد فيهاعلى التاريخ القديم، وهي دراسة تفصيلية تناول فيها المناخ والأرض والموارد المائية والزراعية لمنطقة ديالى بشكل عام. فضلا عن ذلك فقد تحدث في القسم الثاني من الكتاب تأسيس المدن المسوّرة في التاريخ القديم، وبحث في التطوّرات التي شهدتها تلك المنطقة والمتمثّلة بالآتي :-

١- تدهورها للمدة بين (٢١٠٠ق.م ـ ٦٢٦ق.م) ثم.

٢- إستعادة تطوّرها التمدني في المدة بين (٦٢٦ق.م ـ ٢٢٦ق.م) ثم.

٣- دور الإسلام في إعادة النشاط التمدني والحضري في المنطقة؛ وأخيراً.

٤- إنحطاطها وتدهورها.

وهو خلال حديثه عن حركة التمدن هذه في المدة الإسلامية يقدّم جداول مقارنة بين الفترات السابقة للإسلام وبين المدة البارثية والساسانية. ويتوصل إلى نتيجة مفادها :- سعة هذه الحركة خلال المدة الإسلامية كانت أعظم بكثير من المدة البارثية ولكنها أقل بوضوح من المدة الساسانية. غير أنه إذا ما ادمجت مدينة بغداد ضمن حركة التمدن في عموم هذه المنطقة عندئذ ترتفع سعة التمدن الإسلامي فتبلغ (٢,٥) مرتين ونصف أكثر من المدة السابقة، فإذا ما أضفنا اليها مدينة سامراء تقفز النسبة إلى ٤ أضعاف من ذلك[2].

أما جورج سكانلون Scanlon فإنه قدّم أيضاً ورقة إلى ندوة المدينة الإسلامية في أكسفورد وكان موضوعها (الخدمات الصحية والسكن في مدن العصر الوسيط) وتحدث فيها عن عدة مسائل طريفة ومهمة. إذ أشار إلى مدى اهتمام المسلمين بنظافة المدن، موضّحا ان كلّ مدينة كان لها نظام خاصّ بها، والسلطة المركزية هي التي تجهّز الفرد بالماء الصالح للشرب. وهناك مراقبة يوميّة يقوم بها المحتسب لمتابعة

---

(1) Rebert Mcc, Adams: Land behind Baghdad. A History of settlement on the Diyala plains (Chicago 1965) pp. 62.75, Lassner, op.cit. p. 160.

(2) George T. Scanlon: "Housing and sanitation. Some aspects of Medieval Islamic public service" in The Islamic city" pp. 179-94, especially p. 181, 183, 184.

تطبيق المبادىء الصحية، ووجوب تزويد الشوارع بالمياه يومياً ومراقبة الباعة وضرورة بل ووجوب تنظيفهم الإماكن المواجهة لحوانيتهم وتجهيز محلّاتهم بالمياه. ومن بين الخدمات الأخرى التي تقوم بها السلطة هي تنظيم الشوارع وهندسة سعتها للتغلب على مشكلة التزاحم وذلك مشروط بتحديد أنواع الحيوانات والدواب المسموح بدخولها إلى داخل المدينة، وكذلك تخصيص إماكن محدّدة لربطها في هذه الإماكن[١]. فضلاً عن ذلك فإن سكانلون قد شارك في بعثة تنقيبية عملت في خرائب مدينة الفسطاط، وقد قامت هذه البعثة بثلاث عمليات تنقيبية خلال سنوات ١٩٦٤، ١٩٦٦، ١٩٦٧؛ ونشر تقريراً مفصلاً عن نتائج عمليات التنقيب هذه في مجلة معهد البحوث الأمريكي[٢]. وقدم في القسم الأول من تقريره تفصيلاً تاريخياً عن بداية تأسيس مدينة الفسطاط مبرزاً التطوّرات الطوبوغرافية التي شهدتها المدينة اعتماداً على استشهادات عدد من الجغرافيين المسلمين. وركّز فيها على شكل البيوت في الفسطاط وشوارعها[٣]. والحقيقة فإن البعثة أضافت نتائج طوبوغرافية طيبة إلى النتائج التي قد تمّ العثور عليها من قبل في بعثة الأستاذين علي بهجت بك وجبريل في تنقيباتهما في الفسطاط خلال العشرينات[٤] سواء أكان من حيث اللقى أم من حيث نماذج البيوت أم بالنسبة اليالقنوات لتصريف المياه.

أما روجرز J.M.Rogers فإنه الآخر يعدّ من المساهمين في ندوة أكسفورد، وكانت ورقته تتعلق بـ (مدينة سامراء، دراسة في تخطيطها). ومن بين الأمور التي تستحق الذكر في ورقته إشارته إلى أنه على الرغم من وجود بعض الديّارات في الموضع الذي قدتأسست فيه مدينة سامراء، وعلى الرغم من وجود بعض القرى الصغيرة، لكن المدينة نفسها تعدّ أنموذجاً لمدينة إسلامية Typical of Islamic Town وهي تختلف اختلافا واضحا عن أية مدينة هيلينية[٥]. لذلك يصعب أعتبار بناء مدينة سامراء كظاهرة

---

(1) George T. Scanlon: "Preliminary Report: Excavations at Fustat, 1964" in J.of the American Research Centre in Egypt, Vol, IV. (1967) PP. 65-86.

(2) Ibid., Vol.IV. (1964) PP. 7-8.

(٣) علي بهجت بك: حفريات الفسطاط، القاهرة ١٩٣٨.

(4) J.M Rogers: "Samarra, a Study in Medieval Town-planning" in The Islamic City, pp. 119-155, especially p. 126,127.

(5) Ibid., p.120.

منعزلة بل هي جزء من تطوّر تمّت أصوله إلى المدة الأموية، فلقد أتخذ الأمويون مراكز حضرية في الصحراء بوصفها تمثّل فكرة إسلامية تظهر من خلالها عظمة السلطان عن طريق حجم أعماله ورخاء فترته(١). ويتحدث البروفسور روجرز أيضاً عن وضعية سامراء وفيما إذا كانت مدينة أم مصر أم قرية؟ ويعقّب على ذلك بقوله: - أن هذا يرتبط بمشكلة أعمّ وأشمل منها هل كانت سامراء مصر أم مدينة رباط أم مدينة متعة مثل مدينة الزهراء في الأندلس أم مدينة دبلوماسية مقارنة بما أسسه الأغالبة من مدينة إلى جوار القيروان(٢)، ثم عرّج في دراسته هذه إلى وصف شارع المدينة الرئيس(٣).

ومن الباحثين الآخرين الذين اعتمدوا على وثائق الجنيزة في دراسة المدينة الإسلامية المستشرق موشيجيل Moshe Gil الذي كتب بحثا بعنوان (عمليات البناء والترميم وإعادة بناء بيوت القدش (التي تشابه الأوقاف الإسلامية) في الفسطاط)(٤). كما أن هناك دراسة البورت E.A Alport عن مدن المزاب .Mozab والدراسة تتعلق بالأعمال العمرانية التي قام بها الخوارج في شمال أفريقيا نظير بناء المدن في منطقة المزاب، كما أنهم بعد خروجهم من مدينة القيروان أتخذوا مدينة تاهرت Tahert التي أصبحت بعدئذ عاصمة إمارة تاهرت. وفي مدة لاحقة اضطروا ـ نتيجة للهجوم الذي شنّه الجيش العباسي عليهم في سنة ٩٠٩م ـ إلى اختراق الصحارى وتأسيس مدينة سدرتا Sederata لكنهم تركوها بعد مدة ـ وجيزة بسبب عدم تمتعها بموقع أستراتيجي صالح ولعدم توفّر المواصفات الملائمة ـ وأسسوا بدلها مدينة العلوف وبونورا Bou Noura وبني اسجون Beni Isguen ومليكة Melika في منطقة المزاب الواسعة. فضلا عن ذلك فقد درس البروفسور البورت البنية الإجتماعية لمدن هذه المنطقة(٥). وعلى ذكر

(1) Ibid., p.123.

(2) Ibid., p.143.

(3) Moshe, Gil: "Maintenance, Building, Operatinons, and Reparis in the houses of the Qodesh in Fustat" in J. of The Economic and Social History of the Orient, A Geniza study (XIV/1971) PP. 136-95.

(4) E.A. Alport: "The Mzab" in Arabs and Berbers from tribe to Nation in North Africa. Ed. By Ernest Callner and Charles Micaud (London 1972) pp. 141-52 especially 144-64.

(5) Charles F. Callagher: "Note on the Maghirb" in Man State and Society in contemporary Maghrib Ed. By William Zartmen (New York 1973).

حركة التمدن في شمال أفريقيا فقد تضمّن الكتاب الموسوم بـ (رجل، دولة، مجتمع في المغرب المعاصر) عدّة دراسات تغطي موضوعات متنوعة عن المغرب إجتماعياً وسياسياً وفكرياً ودينياً في الوقت الحاضر؛ ووردت بعض الإشارات في بحث شارلز كاليجهر Charles F.Gallagher الموسوم بـ (ملاحظة عن المغرب)[1] وبحث البروفسور كارل براون L.Carl Brown وعنوانه (دور الإسلام في شمال أفريقيا)[2]. الذي يتعلق بحركة التمدن في المغرب خلال المدة الإسلامية الوسيطة.

أما دراسة كريبر Graber التي نشرها في كتاب (الإسلام والعالم العربي) وتدور حول (المدن وأهلها)[3]. فهي دراسة أراد فيها المؤلف أن يوّضح العلاقة بين المدينة وسكانها في مختلف نشاطاتها ومؤسساتها خلال المدة بين ٨٠٠م إلى ١٣٠٠م تلك المدة التي بلغت فيها البرجوازية التجارية في التاريخ الإسلامي أوجهاً[4]. ويرى بأنه من غير المقبول تشخيص المدينة الإسلامية على أنها مجرد وجود مادي فيزيولوجي واجتماعي وإنما أكثر من ذلك فهي سلسلة من الشدّ Series of Tensions بين أقطاب متعارضة وفي أحيان متضاربة. وكانت دائماً عرضة لهذا التباين تبعاً للزمان والمكان؛ فالمدينة تجارية ومهنية. لكن القسم الأكبر من رفاهيتها ورخائها كان يعتمد على الزراعة. وأن التمييز العضوي الفزيولوجي بين حياة المدينة أو التمدن وبين زراعة الأرض كانت غير واضحة أبداً[5]. ويشخّص كريبر سمات المدينة الإسلامية بما يأتي:- إنها مدينة توصف بمسجدها الجامع وهي تحتوي فوق هذا على عدد من المزارات والمشاهد، وكانت محلاتها منقسمة قبلياً ودينياً وجنسياً. غير أن مراكز المدينة التجارية تحتوي على أناس من مختلف الأديان والأجناس. أما بشأن أسوارها فقد بنيت لغرض الحماية من هجمات الأعداء. وكانت تشتمل على عدة مؤسسات

---

(1) Carl L.Brown: "Islam's role in North Africa" in Man State and Society in Contemporary Maghrib.

(2) Oleg Graber: "Cities and Citizens: The growth and culture of urban Islam" in Islam and the Arab World (Ed. by B.Lewis USA 1976) pp. 89-116.

(3) Ibid., p. 90.

(4) Ibid., p.90.

(5) Ibid., p.99-100.

أدارية[1]. ويرى أيضاً بأن العالم الإسلامي كان دائماً موصوفا بحياته التمدنية الحضرية.

"The Muslim world is so frequently defined by its urban life"

ويتحدث في دراسته عن مصادر وموارد ثروات المدينة، وعن مؤسساتها الدينية فوصف المزارات فيها. ووقف على بنية وطبيعة تخطيط المحلة، ووصف بناء البيت، ومصادر المياه، والأمور العمرانية الفنية الأخرى[٢].

نخلص من ذلك العرض المقارن إلى القول بأن دراسة التمدن الأسلامي ودراسة المدينة العربية الإسلامية في العصر الوسيط في الإستشراق الأوربي والأمريكي قد شهدت تطوّرات علمية ونوعية ملحوظة. ولقد أختلفت المدارس الغربية في أهدافها ونظرياتها وأسلوب معالجتها للتمدن العربي الأسلامي وللمدينة العربية الإسلامية بما يتلاءم ونظريات التمدن الغربية من جهة وبما يتماشى والتوجّهات السياسية للدول الأوربية في المنطقة من جهة ثانية.

ولم تعدّ دراسة التمدن العربي الإسلامي مقتصرة على المهتمين بالتاريخ الحضاري العربي أو الأسلامي بل حدث مهم و لا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية متمثّلاً بتوجه علماء الإجتماع ولاسيما علماء الإجتماع الحضري منهم نحو هذه الدراسات. لكن الإجتماعيين على الرغم مما قدّموه من أمور جديدة ومساهمات جادّة في حقل التمدن سواء أكانت في المنهج أم المذهب، فإنهم قد ركّزوا على الجوانب الإجتماعية من التمدن على وفق للنظريات الإجتماعية الحديثة المؤسسة. الأمر الذي أدّى بالبعض منهم الى الوقوع في شرك التناقضات والتقاطعات مع الإستشهادات والأدلّة التاريخية ولاسيما حينما أهملوا الخلفية التاريخية لطبيعة التمدن الأسلامي في التاريخ ومفهوم التواصل الحضاري والأستمرارية في التقدم الحضري. وفي الوقت الذي أتجه فيه الإجتماعيون هذا الإتجاه فقد تمسك المؤرخون بتوثيقاتهم المعتادة بالرجوع إلى

---

(1) Ibid., p.100.

(2) Belayev, V: Arab, Islam, Arab Caliphate, (1969).

وقد ترجم إلى اللغة العربية، كذلك ينظر:

Gideon, Sjoberg: "Theory in urban sociology" p. 168-69.

المصادر التاريخية الأصلية من أجل بناء الخلفية التاريخية الموثوقة لجذورالتمدن العربي الإسلامي. وكذلك من أجل إيجاد عناصر الوحدة والتناسق بين مدن المنطقة أو من أجل للوصول إلى نتائج حضارية متباينة. لكن المؤرخين من الجانب الآخر قد أغفلوا بدورهم بعض المتغيرات التمدنية والحضريةوالإجتماعية والإقتصادية والخططية والى حدّ الفنية للمدينة العربية الإسلامية من.وجهة نظر معاصرة.

فقد تخصّص العرض السابق بتتبع وملاحقة تطوّر الدراسات التمدنية والحضرية الغربية والأمريكية؛ إذن فما موقف الدراسات الأشتراكية السوفيتية في هذا المجال؟ الواقع أن الباحثين السوفيت لم يقدّموا مساهمات متميّزة في هذا الحقل خلال النصف الأول من القرن العشرين، كما أن الدراسات السوفيتية بخصوص التاريخ العربي الإسلامي بصورة عامة هي الأخرى شحيحة وقليلة إذا ما قورنت بإنتاجات المستشرقين في المدارس الألمانية والهولندية والفرنسية. فهناك دراسات شميدت وروزن وكريمسكي وسميرنوف وسولوفيف عن حياة الرسول الكريم والدعوة الإسلامية والتاريخ الإسلامي عموماً. ثمّ اتسعت دائرة اهتمامات الباحثين السوفيت والدول المرتبطة بالإتحاد السوفيتي منذ الخمسينات إذ شملت موضوعات أخرى مختلفة من مفاصل التاريخ العربي الإسلامي إنطلاقاً من نظريتهم المادية. وركّزت هذه الدراسات من بين ما ركّزت عليه مسائل تتعلق بالإقطاع والعبادوية في التاريخ الإسلامي كدراسات نادرداز Nadiradze ويعقوبوفسكي وبيتروشفسكي ومورشوف وكليموفش وغيرها. وتعدّ دراسة بلياييف (العرب، والإسلام، والخلافة العربية) من الدراسات التي تحتوي على بعض الأمور المتعلقة بالتمدن العربي وأهمية المدينة العربية في التطور الإقتصادي للمجتمع الأسلامي في العصر الوسيط. وركّز بلباييف على دور العبيد في النشاطات الإقتصادية والسياسية في المجتمع متتبعاً حركاتهم السياسية وأوضاعهم الإجتماعية منذ أقدم الحقب التاريخية. وقد أبرز خلال حديثه عن التحولات التجارية، الوجه التمدني للمجتمع العربي الإسلامي المتمثل بتأسيسهم المدن وبانخراطهم في نشاطات الأعمال التجارية. فضلا عن ذلك فإن الباحثين الإجتماعيين السوفيت وغيرهم من الدول الأشتراكية قد تحدثوا عن المدن بصورة عامة فقسّموها تقسيماً مادياً متفقاً مع تقسيمهم للحضارات على أساس المراحل الخمسة المعروفة في التفسير المادي للتاريخ والحضارات. فالمدن حسب ما يعتقدون هي:

١- مدينة ملكية العبيد .Slave-Owing City

٢- مدينة الاقطاع .Feudal City

٣- مدينة الرأسمالية .Capitalist City

٤- مدينة الاشتراكية .Socialist City

وأنهم كما هو الحال في منهج الباحثين الإجتماعيين الأمريكان، قد ركّزوا على دراسة الحياة الإجتماعية للمدينة وتفحّص طبقات المجتمع فيها. ويتضح تأثير هذا التقسيم والتفسير المادي للدينة والمجتمع في كتاب بليابيف السابق الذكر حينما تناول مدن مكة والمدينة وبغداد. ويبدو أن الإجتماعيين الماركسيين الجدد قد وسّعوا المفهوم السابق؛ وذلك بعدم اقتصارهم على تفسير المدينة على وفق ذلك التقسيم الذي يظهر بوضوح نظرية الصراع الطبقي وإثر العامل الإقتصادي دون غيره من العوامل. فلقد حاول هؤلاء عند دراسة الأحوال الطبقية في داخل بنية المدينة الإجتماعية بصورة عامة أن يضعوا نصب أعينهم على المحرّك الأساس للتحولات التي يواجهها مجتمع المدينة وهو العامل الإقتصادي.

كذلك من الممكن القول بأن المؤرخين والباحثين السوفيت والأشتراكيين قد اهتموا في دراساتهم التاريخية والتمدنية الإسلامية في العصر الوسيط في منطقة المشرق وآسيا الوسطى بينما ركّز الباحثون الفرنسيون كما مرّ ذكره على شمال أفريقيا والباحثون الأمريكان على المغرب العربي ومصر. فهناك مثلاً دراسة بولشاكوف في معهد ليننغراد للأستشراق حول المدينة الإسلامية في آسيا الوسطى.